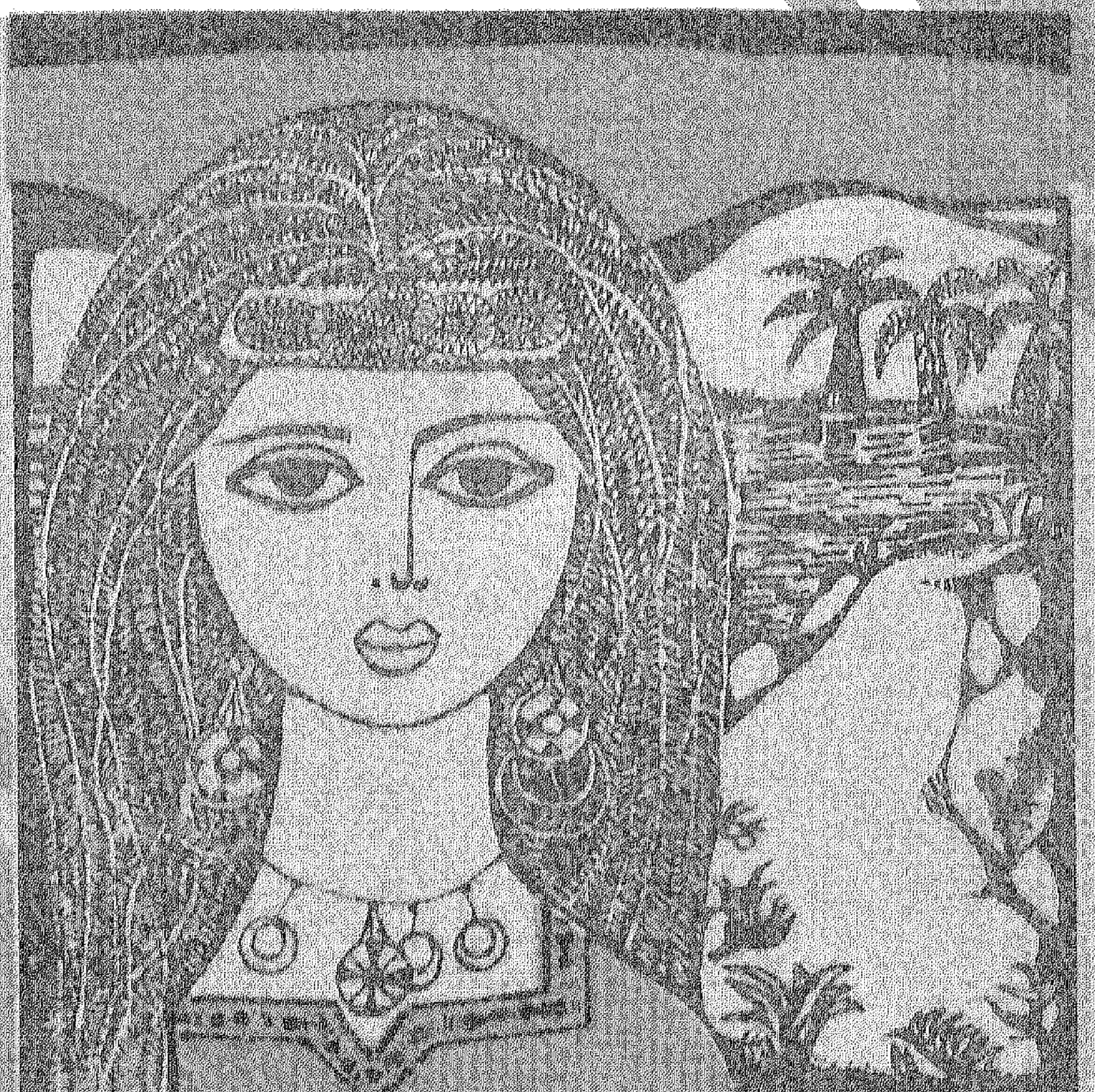
اقرأ

عفراء

قصة الحب الخالد



فايد العمروسي

دار المعارف



تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: عادل الغضبان



دار المعارف بمصر



فايد العمروسى

عفراء

قصة الحب الخالد

اقرأ ٣١٣

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣١٣ – يناير سنة ١٩٦٩

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م .

تقدمة

بطلا هذه القصة هما : عروة بن حزام وصاحبته عفراء .

وزمان هذه القصة هو الحقبة الأولى من صدر الإسلام .

ومكان هذه القصة هو بادية الحجاز البعيدة عن الرخاء وليونة العيش .

وكانت البادية إذ ذاك أحياء ونجوعاً يسكن أهلها خيام الوبر ، أو الدور المشيدة من الأغصان الجافة أو من جذوع النخيل وجريدها ، وتقوم معيشتهم على رعى الإبل والأغنام فى المراعى ، وعلى ما تنتجه بعض سهولهم من البلح والزيتون والشعير .

وقد كان سكان البادية فى شبه انقطاع عن سائر بلاد الجزيرة العربية والممالك المفتوحة ، لذلك ظلوا فى بداوتهم كما كانوا فى الجاهلية وعهدهم بها ليس ببعيد .

وقد عاش عروة وعفراء فى تلك البادية ، ووقع بينهما أول حب عذرى عرفته البادية ، وبه تحدث الرواة وطارت أخباره فى الآفاق .

وعروة بن حزام بطل هذه القصة هو أول شاعر من شعراء الحب العذرى مات فى حبه .

وهو شاعر كبير من شعراء الغرام وقف شعره كله على حبيبته عفراء .

ومن شعره قصيدته النونية المشهورة التى مطلعها :

خليلى من عليا هلال بن عامر
بصنعاء عوجا اليوم وانتظرانى ..

وشعره منثور فى أمهات الكتب الأدبية ، كما أن قصته لا تعدو أن تكون نتفاً صغيرة من الأخبار مبعثرة هنا وهناك فى بطون الأسفار .

وفى هذه القصة تحدث عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وابن عباس رضى الله عنه ، وابن أبى عتيق .

* * *

ويقول الرواة :

إن قصة عروة وعفراء هى أول دمعة من دموع الحب العذرى « العفيف » انسكبت فى البادية الإسلامية .

ومن قصة عروة وعفراء عرف الحب العذرى ، وابتلى به

بعدهما كثير من المحبين الوالهين أمثال مجنون ليلى ، وكثير صاحب عزّة ، وجميل صاحب بثينة .

وعرفت قصة هذين الحبيبين فتمثل بها كثير من الشعراء المحبين وغير المحبين .

ومن شعر مجنون ليلى فى رثاء عروة :

عجبت لعروة العذرى أمسى أحاديثاً لقوم بعد قوم
وعروة مات موتاً مستريحاً وها أنا ميت فى كل يوم

ومن شعر أبى عيينة :

فما وجد النهدى[1] إذ ماتَ حسرة
عشيةَ بانتْ من حبائله هند
ولا عروة العذرى إذ طال وجدُه
بعفراء حتّى شف مهجته الوجد
كوجدى غداة البين عند التقائها
وقد طار عنها بين أترابها البرد

---

(١) هو عبد الله بن عجلان صاحب هند .

٨

وقال جرير فى عروة :

هل أنت شافيــة قلباً يهيم بكم
لم يلق عروة من عفراء ما وجدا

ما فى فــؤادى من داء يخامــره
إلا التى لو رآها راهب سجدا

فايد العمروسى

عَفراء وعروة ... مَن همَا ؟

مالت الشمس نحو المغيب ، وأرسلت أشعتها الذهبية على رمال الصحراء ، ورجع الغلمان الرعاة بأغنامهم من شعاب الوادى القريب ، وراح كل يهش على غنمه ويسوقها إلى الحظائر تحت سقوف من الحطب الجاف أو الأعشاب الطرية بينما سكن الحى وقبع ، فلا يسمع فيه إلا غثاء الشياه وهى تدخل إلى حظائرها وقد انتشر حولها دخان القدور مما يهيأ فيها من العصيد أو الثريد .

وصاحت امرأة من نساء الحى بزوجها :

يا رجل : قاربت الشمس المغيب ولما تأت عفراء من المرعى...

قال الرجل : ولا عروة يا هند ! ترى ما بهما ؟ لعلهما تاها فى الشعاب ! أو لعلهما قد أجهدهما رعى الغنيمات الماكرات وفيهن ما لم يمض على وليدها أيام ؟

وما انتهى الرجل من حديثه أو كاد حتى امتعضت هند وأجابت فى جفاء :

ما عن عروة سألت يا رجل ! بل عن عفراء ابنتى وابنتك ، وما أظنك تجهل ما بها من ليونة الطبع وسلس القياد .

وأخشى ما أخشاه أن يكون عروة بن أخيك قد جرها إلى

اللعب بالحصى فى وادى البلقاء ، وهو — كما تعلم — معروف بكثرة الأفاعى والذئاب .

وإنى لضقت ذرعاً بعروة هذا الغلام الشيطان ، فما تقع عيناى بسببه على ابنتى عفراء غير لحظات من نهار أو عشية من ليل . . . هيا يا رجل تفقد ابنتنا فى الخلاء ريثما أفرغ من تحضير العشاء ! !

* * *

وأشاح عنها زوجها عقال بوجهه ، ثم جمع طرفاً من ردائه وطرحه على عمامته وخرج يخترق دور الحى وخيامه فى تراخ وفتور يتصفح وجوه غلمانه ، ويسأل هذا وذاك عن عروة وعفراء ، فبعض يجيب بأنهما تأخرا فى المرعى ، وبعض يقول : إنه رآهما جالسين بجانب الجزع الكبير خلف الحى !

ومضى الرجل فى طريقه لا يلوى على شىء ، وفى نفسه من الهدوء والصبر ما لا يكون فى نفس مثله يبحث عن غلامين تأخرا فى المرعى أحدهما ولده ، والثانى ولد لأخيه .

ولكن الرجل ما كان له أن يجزع أو يتلهف ، فهو قد تعود من عروة وعفراء مثل هذا التأخير فى المرعى ، وهو يعلم كذلك أن ليس بالوادى أفاع أو ذئاب كما تدعى زوجه هند ، فلا ضير على الغلامين أن يتأخرا فى العودة ، فهما ذوا خبرة بمسالك الوادى ونجاده وأغواره ، كما أن به ماء لسقى الإبل ، وبئراً روية تظللها بعض أشجار الزيتون مما فى قد يجمل فى نظر

الغلامين أن يتهجرا فى ظلالها وقد لا يعودان مع الأغنام إلا فى أول أمسية من أمسيات الليل حين يطل القمر فيصافح الرمال ، وتدب أنفاسه فى صدور الشياه فتتثاءب وتحن إلى الرجوع والمبيت .

إنه يعلم كل هذا وأكثر من هذا ما يحسه فى أعماقه من تآلف الغلامين وحذرهما وحرص كل منهما على أخيه فلا ضير عليه إذن أن يعرج على صديقه «المخزومى» فيشرب عنده القهوة ، ويتحدث إلى زوجه « أم النضر » فى أمر من الأمور بينها وبين زوجه « هند » .

وما دامت زوجه « هند » تعرف أنه خرج ليتفقد « عفراء » وما دام هو مطمئناً على ابنته ، فليظل كل فى حاله ، هى تجهز الطعام فى دارها ، وهو جالس مع صديقه « المخزومى » على باب خيمته ، وقد أوقد النار فى بعض عيدان من الحطب ، بينما أخذ صاحب الدار يقلى حفنة من البن الأخضر ، ثم تجهز لطحنها فى مطحن من الطين المحروق ، وبينما أم النضر تنتظر أن يغلى الماء فى الإبريق !

* * *

وما إن فرغت هند من تجهيز الطعام حتى حضر الغلامان بالأغنام على غير عادة الرعاة فى قيادة الأغنام ، فلم يكن أحدهما أمامها والآخر وراءها كما هو مألوف ، وإنما كانا يسيران جنباً إلى جنب أمام الأغنام وهى تتبعهما فى طاعة ونظام .

ولم يكن لكل منهما عصا خاصة به ، وإنما كانت لهما عصا واحدة من أغصان الزيتون ، وقد أمسك كل منهما بطرف من طرفيها حين أشرفا على الدار . وما لمحت هند أم عفراء مشيتهما حتى تميزت غيظاً وزمجرت بهذه الكلمات :

عفراء . . . ما هذا ؟ تمسكان بعصا واحدة كأن أشجار الزيتون حول البئر قد جفت وتعرّت من الأغصان ؟

وتسيران جنباً إلى جنب أمام الأغنام كأنما هى الراعي وأنتما الشياه ؟

أسرعي يا ماكرة . . أدخلى الأغنام وتهيئى للطعام !!

ولم تنطق عفراء حرفاً واحداً حين سمعت هذا التقريع ، ولكنها أطرقت إطراقة الحياء وقد التهب الدم فى وجنتيها الصغيرتين ، وأحست إحساساً خفيفاً أن لهذا الكلام معنى دقيقاً وإن كانت لا تدركه . . وتيقظت لأول مرة أنها أتت أمراً يلفت الأنظار !! وإلا فما بال أمها وهى أحب الناس إليها تواجهها بهذا التقريع ؟

لقد كانت سائرة أمام الأغنام بجانب ابن عمها « عروة » وهو غلام صغير مثلها . . وكانت تمسك وإياه بغصن من أغصان الزيتون لحاجتهما إليه فى ردع ما يحيد من الأغنام عن الطريق . . فما فى هذا من إثم ؟

إنها لا تدرى . . وكل ما تدريه أن أمها أنبتها على هذه المشية بهذه الطريقة التى لم ترقها ولم ترتح إليها ، ولعل فى هذه المشية إثماً لا تدريه ولكن أمها تدريه ، وفيها خروج عن المألوف

لا تفهمه ، ولكن أمها تفهمه وتدركه كل الإدراك .

وهكذا ظلت عفراء تسأل وتجيب ، وتقر وتنكر حتى انتهى بها منطقها الصغير إلى أنها مخطئة ، لأن أمها تدرى ما لا تدريه ، وتدرك ما يستعصى عليها إدراكه ، فاقتنعت ، ثم ارتمت على مصطبة صغيرة فى دهليز الدار عليها منثور من القش الطرى وقطع من الصوف البالى العتيق .

أما « عروة » فقد جمد فى مكانه ، وقد شق عليه أن تنال عفراء هذا الأذى وهو عاجز أن يدافع عنها ، ولكن الذى حز فى نفسه ألا تناله كلمة واحدة من هذا التأنيب كأنما هو شيء مهمل أو غير موجود ، وهو إن كان قد فرح بادئ بدء أن نجا من هذا التأنيب ، فإنه قد اغتم كل الغم أن رأى ابنة عمه كابية واجمة ، وألا يحظى من زوجة عمه بكلمة خير أو شر حتى بقولها :

هيا يا ماكر . . ! أدخل الأغنام وتهيأ للطعام !

* * *

دخل عقال أبو عفراء داره راجعاً من لدن صديقه المخزومى وقد شرب القهوة ، وصلى معه صلاة المغرب فوجد عفراء ذاوية فوق المصطبة وقد حلت حزامها الأحمر وعصبت به شعرها وعلى قرب منها وقف عروة واجماً حزيناً .

فما إن رآهما عقال حتى صاح بزوجه : هند ! ما بال الغلامين ؟ فأجابت فى غضب : سلهما . . فما لدىّ جواب !

قال عقال : كيف أغنامكما يا عروة ؟ ولم يكد عروة ينطق حتى صاحت هند فى زوجها :

يا رجل . . ! لا تتنكب الطريق فى مسألتك ! ما لعُروة شأن فيما تسأل !! هالك عفراء فسلها .

قال عقال : ويلك يا هند !! هذان طفلان فعفراء ابنتى وابنتك ، وعروة ابن أخى وابن عمها ، وحسبهما أن قطعا الهجير فى الوادى . . . فلا يكن عليهما هجيران . . . هجير فى المرعى وهجير فى الدار !! قالت هند وقد تحمقت : والبئر . . وأشجار الزيتون ؟ !!

فابتسم الرجل وقال : اسكتى يرحمك الله ... هيا يا عروة ، هيا يا عفراء . . هيا يا ولدىّ إلى الطعام !!

* * *

هذا هو عروة ، وتلك هى عفراء صغيرين !!

فأما أبو عروة فهو حزام بن مهاصر . . وأما أبو عفراء فهو عقال بن مهاصر .

فحزام وعقال أخوان شقيقان يحب كل منهما الآخر ويعتز به أيما اعتزاز ، وكان أبوهما مهاصر شيخاً وقوراً من بنى ضبّة ، وهم قبيلة من العذريين الذين عرفوا بالحب العذرى والغرام العفيف ومنهم كان المجنون وجميل وأضرابهما .

وكان مهاصر رجلا مرموقاً تتلفت إليه أعناق الحي ، ويجدون لديه متسعاً لأمورهم وقضاء لحوائجهم .

ولم يكن مهاصر من اليسار على قدر يكفيه ، فكان يتلمس عيشه فى التجارة ما بين نجد والحجاز واليمن شأن التجار فى رحلاتهم ذلك الحين .

لهذا نشأ حزام وعقال ولداه على نحو من أبيهما ، فكانا يساعدانه على السعى فى الرزق ، ثم استقلا به بعد أن لوت الأيام ظهر الشيخ ، فقعد به الكبر ، وألزمته الشيخوخة الاعتكاف والانقطاع عن العمل وعشرة الناس ، وقد كان من السهل على مهاصر وولديه وقد كبرا أن ينزعوا إلى أرض الحجاز اللينة ، حيث الرخاء والرغد ، لولا أن طبيعة البدو تأبى الرخاء والتحضر ، وتراهما مفسدة للطبع وانحلالا للخلق وإنكاراً للمجد الموروث فى البادية من الخشونة والفروسة والنضال .

هكذا شب الأخوان وتعاونا على الحياة وهما فى نضرة العمر ورونق الشباب ، كلاهما شاب مفتون بفتونه غير أن « حزام » كان يفضل أخاه فى وسامة الخلق ، وعذوبة النفس ، كما كان يفضله فى الحركة الدائبة والنشاط وحب المخاطرة والجرأة والإقدام والمغامرات فى الرحلات للصيد والقنص فى الفيافى والقفار .

وأما « عقال » فكان مثالا للطيبة والقناعة والسماحة النفسية ، حتى إن الناظر إليه لا يخطئ كثيراً لو عدّ ما به نوعاً من الخمول والتواكل والرضاء الممقوت !!

* * *

وكان فى الحىّ فتاتان . . . فأما إحداهما فسلمى ابنة عمهما ،

وأما الأخرى فهى ابنة شيخ صديق عزيز لأبيهما مهاصر ، ولقد توجهت كل من الفتاتين بقلبها إلى « حزام » لأنه كان أصغر من أخيه « عقال » ببضعة أعوام ، وكان أوفر منه نشاطاً وأليق مظهراً .

وعرف حزام ميل الفتاتين نحوه فما وجد فى نفسه ميلا لسلمى ابنة عمه فأعرض عنها ، وأحسّ فى نفسه استجابة لهند فأقبل عليها .

وقد عرف هذا الإحساس فى الحى بما بدا من الفتاتين نحو « حزام » ومما بدا منه نحو هند بالميل إليها ، ونحو سلمى بالإعراض عنها ، فتكلم فيه القوم وإن لم يسرفوا ، وبدأت الغيرة حملاتها بين الفتاتين ولكن فى دائرة مكتومة وبقدر لا تتطاير به الأنباء .

وتشاء الأقدار أن تمثل أدوارها فى سخرية وبراعة ، فسافر « حزام » فى شأن له إلى اليمن ، وطالت غيبته وطالت حتى تحدث الناس عنها ، وانشغلت الفتاتان به ، وكانت هند أكثرهما انشغالا .

ثم تواترت الأحاديث عنه فى الحين بعد الحين حتى حملت إحدى القوافل النازلة بالحى والشاغرة من اليمن أن « حزاماً » قضى فى بعض مخاطراته مع فتية من الأعراب .

وعمّ الخبر الحى فحزن عقال أشد الحزن ، وأخفت هند وجدها عليه ، وتظاهرت ابنة عمه سلمى بالجزع وإن كانت فى

قرارة نفسها فرحة تشفياً من هند ، وراحة من أمل كان يشقيها لو تعلقت به وليس لها إليه مهما حاولت منفذ أو سبيل !!

* * *

وأسدل الستار على حزام بضعة أشهر نسى فيها القوم قصته أو تناسوا حتى خُطبت هند لعقال فتزوج منها ، وقنعت سلمى من حظها بهذا القدر ما دامت هند لم تفز بحزام .

وتشاء سخرية الأقدار مرة أخرى أن يحضر « حزام » إلى الحى بغتة فما كان قد قضى نحبه كما قيل ، ولكنه وقع أسيراً مع رفقة له فى يد جماعة من الأعراب ما زال ديدنهم الإغارة والسلب على عاداتهم فى الجاهلية ، ثم استطاع أن يتخلص من الأسر ببعض الحيل ويرجع إلى أهله .

وما إن دخل « حزام » الحى حتى هاج أهله وماجوا ، وفرحوا به واستبشروا ولا سيما سلمى ابنة عمه وما كان لها إلا أن تفرح وقد أخلى الطريق لها بزواج هند غريمتها من عقال . . . ورأى حزام ما آل إليه أمر هند ، فانطوى على نفسه وكبح عواطفه وتيقظ فى قلبه نوع من الحنين والعطف على سلمى انتهى به إلى أن تزوج بها . . !

وهكذا أسدل الستار على فصل من ألاعيب الأيام ، وعاش الأخوان كل فى داره ، عقال مع هند وما كانت لترضاه ، وحزام مع سلمى وما كان ليرضاها .

ثم أنجبت الأولى عفراء ، وأنجبت الثانية عروة بطلى هذه القصة .

ومضى أربعة أعوام بين الأخوين وهما على شيء من الفتور والجفاء بسبب المرأتين ، السبب الذى تعرفه سلمى وزوجها «حزام» ، وتعرفه كذلك هند وإن كان زوجها «عقال» لا يعرف عنه شيئاً إلا بالنذر اليسير الذى تطايرت به الأنباء ! ! ثم عاد حزام إلى مغامراته الأولى من الصيد والصعلكة فى البيداء فكان نصيبه الهلاك.

وهكذا انتهت حياة « حزام » فترك ابنه عروة طفلا صغيراً ، ولم ترحم الأيام هذا الطفل فتبقى له أمه بجانبه ، إذ سرعان ما خطبها رجل من حى قريب من أحياء بنى عذرة فانتقلت إليه ، وعزّ على عمه عقال أن يترك ابن أخيه ليعيش فى كنف زوج أمه ، فأبقى عليه فى داره بجانب عفراء .

* * *

لم يبق حينئذ غرابة فى ألا يلقى عروة من زوج عمه شيئاً من العطف أو الحنان ، فهى غريمة أمه سلمى ، وهو ابن لهذه الغريمة ، فما تستريح أن تراه دائماً فى دارها بجانب ابنتها وهى التى كانت تتمنى أن يكون عروة ولدها هى . . . وأن يكون أبوه سيدها وبعلها .

وما تطمئن كذلك أن يكون لعروة نصيب أوفى من عطف عمه عقال وإعزازه إياه . . . ثم إن أخوف ما تخافه أن تكون ابنتها من نصيب غلام لم تكن هى من نصيب أبيه على تمنيها إياه ، فما يمنعها وهى التى تشم بغريزتها أن تحتاط كل الحيطة ، وأن تحذر كل الحذر فتعمل جاهدة على تلافى ما عساه يقع بين

عروة وعفراء من ألفة ومودة فهى ذلك ضن بمعروف على غلام لا تحبه ولا تطيق أمه . . . وهو فوق ذلك انتقام غير مباشر من ذلك الغلام المسكين .

هذه هى هند التى قضى الله أن يظل عروة فى دارها منذ أن كان فى الخامسة من عمره إلى أن بلغ مبلغ الشباب حتى تمثلت مأساته الخالدة التى علمت شعراء بنى عذرة الحب العفيف الذى قاساه المجنون وجميل وقيس وكثير وأضرابهم من العشاق الذين تحدث عنهم التاريخ الأدبى فى الحقبة الأولى من صدر الإسلام .

* * *

وأما عمه عقال فكان رجلا طيباً حقاً ، إنه لم يحس أن زوجه هند كانت متجهة بقلبها قبل الزواج إلى أخيه « حزام » وإن كان قد سمع عن ذلك نتفاً طائرة تحدث بها القوم من هنا وهناك .

وإنه لا يستطيع إدراك ما بقلب زوجه نحو عروة إلا أنه تضايق طبعى من كل امرأة تعنى أو تلزم بالعناية بغير ولدها... وإنه لناس أو غافل أو جاهل ما كان بين المرأتين من صراع خفى قبل أن تعرف كل نهايتها ، على أنه إذا عرف أو تيقن فما ذاك بضائره ، فليس هو ذا طبيعة عميقة تتعمق فيها الأحداث ، كما أنه ليس بالرجل البدوى الجاف الطبع الذى يأخذ الأمور بقسوة وعنف وضراوة ، وإنما هو رجل فيه كثير

من طيبة القلب وصفاء الضمير وسماحة الطبع .

لقد أحس الرجل أنه مكلف بحق الرحم والدم وأن يتحمل ابن أخيه فى داره ، وأن يحله من نفسه محل ولده وهو لم يرزق غير عفراء ، وأن يرعاه بحدب وحنان حتى لا يشعر بمرارة اليتم والحرمان .

وكان طبيعياً لرجل هذه حاله وتلك صورة من عواطفه أن يصطدم بزوجه هند وتلك حالها وهذه صورة من عواطفها .

كما كان لابد لمثله أن يدارى زوجه ويمالئها ، وأن يأخذها باللين والسماحة ويعمل على ترضيها ولو تنازل فى ذلك عن بعض من مقوماته .

وهكذا عاش عروة وعفراء بين عقال وزوجه .

هذا أب وعم . . . وتلك أم فى قلبها من الماضى بعض وساوس النساء .

فى المرعى الحبيب .. !

بدأ عروة وعفراء يخرجان إلى المرعى كل يوم ، فما تشرق الشمس كل صباح إلا وهما فى الوادى ، حيث الأغنام منتشرة فى نواحيه ، هذه تبحث عن عود من العشب ، وتلك تنبش الأرض بحافرها بحثاً عن نبتة كامنة تحت الطرى من التراب .

وكأنما الأغنام قد أحست راحة هذين الغلامين وفرحهما بالمرعى ، فما تريد أن تنغص عليهما ما يشعران به من السرور والانطلاق ، فهى دائماً مجتمعة قريباً منهما ، أو متفرقة على أبعاد لا يصعب معها الحذر والانتباه .

ولولا أن شاة عنيدة كانت تنفر فى بعض الأحيان إلى المسارب البعيدة فيرجعها عروة بصفير تعوّده ، ما كلف الغلامان نفسهما نظرة واحدة إلى أغنامهما الطيعة الوديعة .

وتكرر تسرّب الشاة فى المسارب . . . وتبعها كبش عتيق مثلها! وتيقظت عفراء مرة إلى تسرب هذين الصاحبين فتضايقت ، وظهر على ملامحها التأفف والضجر من مضايقة هذه الشاة العنيدة وصاحبها الكبش العتيق .

ولمح عروة فى ملامحها هذا التأفف فسأل : مابلك يا عفراء؟

ولكن عفراء ضحكت أو تضاحكت وقالت : شاةٌ كرهت عشرتنا وشقت عصا الطاعة علينا !!

وابتسم عروة وحول وجهه إلى الشاة الهاربة وصاح : وكبش يتبعها ! ! ثم صفّر صفيره المعهود فما ارعوى الكبش ولا وقفت الشاة ، كأن بينهما مؤامرة مبيتة من الليل ! !

وهبّ عروة يجرى وراء الهاربين ، فجرت عفراء خلفه وهى تضحك تارة ، وتصرخ تارة أخرى حتّى لحقا بالشاة فأمسكا بها .وفكرت عفراء فى حيلة صبيانية لطيفة فربطت فى إحدى رجليها حبلا وصلته بحجر غليظ لا تستطيع الشاة جرّه فثبتت فى مكانها .

استراح الراعيان وانصرفا إلى حديثهما ولعبهما وقد أمنا على أغنامهما الهادئة من متاعب هذه الشاة العنيدة . . وما هى إلادقائق حتّى توقفت عفراء عن حديثها فجأة وانفجرت ضاحكة .

وسأل عروة : ما بك يا عفراء ؟ قالت : انظر . . انظر يا عروة . . الكبش العتيق يترك أصحابه ويقترب من الشاة ويقف بجانبها. . . هيا نربطه بحبل ونشده فى حجر !! لعله لا يحب الحرية كما نحبها ، وكما تحبها هذه الأغنام !

* * *

ضحك عروة حين سمع دعابة عفراء اللطيفة وقال : لا ياعفراء !

هذا الكبش العتيق واسمه « رافع » هو أكبر الأغنام سنًّا ، وهذه الشاة واسمها« رفيعة » فى مثل سنه ، ولقد سمعت من عمى عقال أنهما أقدم الشياه عندنا ، فهما اللذان نسلا لنا هذه الأغنام

التى نرعاها . فكلاهما يعرف الآخر من طول العشرة والألفة .

فلما رآها واقفة مقيدة جاء ووقف بجانبها، فهو يعرفها وهى تعرفه حق المعرفة !

وبدا فى وجه عفراء علامات التفكير والاهتمام وقالت : أوتعقل الأغنام حتى يعرف أحدهما صاحبه ، ويحفظ له حق الألفة والعشرة ؟

وتهلل وجه عروة لهذا السؤال وقال : لم أكن أعرف شيئاً عن سؤالك يا عفراء ، لولا أننى كنت مع عمى يوماً فى زيارة جارنا « الأرقط » فحدثنا أن للأغنام والإبل والأفراس وكثير من أنواع الحيوان والطيور إحساساً متميزاً يقرب من إحساسنا نحن بنى الإنسان ! وجارنا الأرقط يا عفراء رجل مسن له خبرة بطبائع الحيوان والطيور ، لقد ذكر لعمى وأنا جالس بجانبه أن بعض الحيوان شديد الألفة ، شديد الوفاء لما تعوده ، فبعضها يعرف صاحبها وتعرف أماكنها ومرابطها ، وتحس أوقات غدوها ورواحها ، حتى إن بعضها ليحزن أشد الحزن لو فارق أهله والمنازل التى عاش فيها والمراعى التى تألفها منذ صغره .

ولقد حكى لى عمى مرة أن أباه «مهاصر» — رحمه الله — كان يقتنى الأشهل والشهلاء ، وهما فرسان رباهما صغيرين فكانا يرعيان معاً، ويأكلان ويشربان معاً ويبيتان فى مربط واحد ، ولما كبر كان يستعملهما فى أسفاره متجاورين .

وحدث أن حزبه أمر ضاقت فيه يده فباع الشهلاء

لرجل من بنى الحرث . . .

أتدرين يا عفراء ما جرى للأشهل بعدها ؟

وأصاخت إليه عفراء وعيناها زائغتان وقد أسندت رأسها على راحتها اليمنى واتكأت بمرفقها على حجر بجانبها وقالت فى رغبة ملحه :

أتمم يا عروة يرحمك الله ! !

قال عروة : فما إن أصبح الأشهل وحيداً حتى نحل جسمه وامتنع عن الطعام والشراب أياماً عدة إلى أن أشرف على الهلاك !

وصمت عروة ، وصمتت عفراء معه ، وكأنما أحست بجريرة ما فعلت بالشاة ، فهبت مسرعة وقطعت ما بين رجلها وبين الحجر ، فجرت الشاة إلى الأغنام المتناثرة والكبش « رفيع » يتبعها ! !

* * *

توسطت الشمس كبد السماء وتوهج لهبها وأحس الراعيان بحرارتها تنفذ إلى ما تحت جلدهما ، وبدأت الأغنام تلهث وتفحص وترخى آذانها ، كما بدأت حلوقها تجف فتتحرك ألسنتها شوقاً إلى الماء . . . ونهض الراعيان يردان الماء بالأغنام .

وجاء وقت الرواح ، فاغتم عروة لما سيلقاه من زوج عمه من الثورة والعبوس والكدر والثرثرة بحق وبغير حق مما قاساه عدة أعوام تحمل فيها كثيراً من الأسى والإيذاء .

اغتم لهذاالرواح الكثيب ولفراقه هدوء المرعى والبئر وأشجار

الزيتون ، وكل أولئك حبيب إلى نفسه ، قريب إلى قلبه يجد فيها الفرح أى فرح ، والسرور أى سرور !

وفطنت عفراء إلى ما يختلج فى ذات نفسة فسألت فى رفق : أما نرحل يا عروة فعملك ينتظرنا كالعادة ، وأمى تترقب الطريق بعين وتهيئ الطعام بالأخرى !

قال عروة : بالله عليك ألا ما بقينا هنا هذه الظهيرة ؟

وأجابت عفراء : وما تقول أمى وهى تقيم الدنيا وتقعدها لتأخيرنا قليلا . . . فما بالك لو تأخرنا هنا طول النهار ؟ ! أنسيت يا عروة يوم المصطبة وما نلت من أذى أمى . . وما كان من أبى حين خرج يتفقدنا ؟ بالله ألاما طاوعتنى ؟

ثم أخبرنى يا عروة ! منذ سنوات ونحن نغدو بالأغنام مع الصباح ، ونروح بها مع الظهيرة وإن تأخرنا قليلا فى بعض الأيام فما رأيت منك كراهة للرواح بقدر ما أرى منك اليوم ! !

وأطرق عروة وراح فى تفكير عميق لم يفق منه حتى نبهته عفراء إلى أن الرعاة يدبون بأعناقهم فى المسالك المفضية إلى الحى ، وأن الوادى صفصف أو كاد ولم يبق فيه غيرهما من الرعاة ثم صاحت :

انظر يا عروة ! هذا قطيع من الغنم يدب فى باطن السفح فى طريقه إلى الحى ، وهذه راعيته جارتنا « رباب » تلك الصبية التى رأيناها أمس تجلس مع أبيها بباب الخباء .

فما تصنع أمى لو رأتها مع أغنامها ونحن هنا فى هذا العذاب؟

هيا يا أخى هيا . . . وجذبت منه غصن الزيتون ولوحت به للأغنام فتحركت ما كانت واقفة ، ونهضت ما كانت راقدة وسار الاثنان أمام الأغنام فى طريقهما إلى الدار ، وما إن وصلا إليها حتى غنت لهما هند نشيدها المعروف وعاد يوم المصطبة بأسوأ مما كان !

وعاد عقال من ظاهر الحى ودخل داره ورأى ما رأى من غضب هند وثورتها ، فرفه عن امرأته غضبها ، فسكتت على مضض ثم صاحت بزوجها : يا رجل !! نبيع هذه الأغنام ونشترى بثمنها صوفاً للتجارة ! وما إن سمع عروة « نبيع هذه الأغنام » حتى انخلع قلبه من بين أضلعه ، أما عفراء فقد انفجرت بالبكاء ، وما رد إليهما الهدوء إلا ضحكة عالية من فم الرجل وصوت فيه نبرات الجد يصيح : لا يا هند . . لن نبيع هذه الأغنام . . وإن لنا فيها لخيراً كثيراً . . !

* * *

وهكذا توالت الأيام والشهور ، وعروة وعفراء يرعيان الغنم نهاراً بالوادى ، ويقضيان الليل فى الدار أو متنقلين فى دروب الحى مع الصبية والصبيان ، وما كان أحلى ذلك الوقت الذى يقضيه عروة فى المرعى ، وما كان أقسى ذلك الوقت الذى يقضيه فى الدار أو بظاهر الحى !

لقد كان الليل عنده بغيضاً كل البغض ، وكان النهار لديه محبوباً كل الحب . . لم يكن الليل فى شعوره من حساب



حياته ، ذلك الليل الذى يقبع فيه فى فراشه الغليظ المصنوع من الحصير ، وغطائه المغزول من الصوف الخشن . . ذلك الليل الذى يمر فلا يرى فيه عفراء ولا يسمع صوتها وهى تردع الأغنام ، إن حادت عن الطريق ، ولا يمتع نظره بقفزاتها وراءها فى خفة ونشاط ، وإن له فى صحبتها للذة لا تعدلها عنده لذة ، وفرحاً شاملا يغمر قلبه فيخفق بالحياة ويمتلىء نشاطاً وابتهاجاً .

وإنه لا يحس مرور الزمن وهى بجانبه ، ولا يدرك المرئيات إدراكاً حقيقياً ، فكل شىء أمامه جميل ، وكل منظر أمامه محبوب ما دامت عفراء بجانبه ، فإن خلا منها فكل شىء أمامه مشوه ، وكل ما يراه رذيل بغيض .

كان يكره الدار ولا يستريح إليها ، وما كان يحتوى قلبه وسمعه وبصره إلا المرعى البعيد ، وإلا ذلك الخلاء الصامت الذى يجمعه بعفراء قريباً من البئر وأشجار الزيتون .

* * *

أحست عفراء بنفور ابن عمها من الدار وتضايقه من قيودها التى تفرضها أمها ، وقارنت بين انطلاقه فى المرعى وتزمته فى الدار ، وبين بشاشته ونشاطه فى الخلاء وبين عبوسه وهموده فى هذه القيود .

أحست كل هذا ولمسته فى عروة فى الحين بعد الحين فعمدت بدافع العطف والألفة أن تهيىء له لحظات من البعد عن هذه الدار . . . فما كانت تضايقه حين يتشوق إلى الخروج

والطواف فى الخلاء بجانب الحى ، وربما صحبته بإذن من أمها فى بعض الليالى المقمرة لملاقاة الصبية والصبيان أمثالهم الذين تعودوا السهر ليلا ولا يعودون إلى دورهم إلا لحاجتهم إلى النوم .

وما كانت لتضايقه إن أحست به رغبة للتأخر فى المرعى ، ولا سيما أن أمها قد سئمت اللوم والتأنيب ، وكفت لسانها قليلا عن الأذى الذى كانت تلحقه بهما كلما حلا لها ذلك ، وانشغلت ببعض أمورها الدنيوية وهى بها جد مشغوفة وحريصة .

وساعد عفراء على هذا المسلك الجديد أنها بدأت تدرك الأمور أكثر مما كانت تدرك، وتواجه تصرفات أمها بشىء من الجرأة والنقاش ، وأن أباها رجل طيب مطواع . يغلبه قلبه أكثر مما تغلبه إرادته ، وتمحو سماحته ما عسى أن يعلق بظنه من الشكوك ، أو يتحرك فى صدره من الغضب !

فلا عليها إذن أن توفر الراحة لابن عمها عروة حتى لا يشعر بأنه فى دارهم ضيف يتوقى ويحذر أكثر مما ينبغى التوقى والحذر ، وما عليها لو عملت وفق ما يحب وهو لا يشتط فى شىء ولا يسرف فيما يطلب . إنه يحب المرعى فلتكن فيه بجانبه ، وهو يكره الدار فلتكن بجانبه فى الخلاء ما استطاعت إلى ذلك سبيلا .

وهكذا بدأت عفراء من ناحيتها عطفاً أخوياً جديداً فيه رائحة من الفهم وإدراك لعواطف القلوب .

* * *

أحس عروة بنداوة فى نفس عفراء وبعطف على رغباته فراح يبسم للحياة من جديد وبدأ ينسى المرارة التى تجرعها يوم جرته عفراء إلى الدار فى منطق أعجبه وأقنعه ، وإن كان قد لاقى من زوج عمه ما لاقى من التأنيب والإيذاء .

لقد بدأ يترقب الصباح كل يوم ليخرج إلى المرعى كما يترقب المريض نعمة الشفاء ؛ أو كما يترقب السجين منطق العفو والانطلاق .

كان يأوى إلى فراشه كل ليلة وكأن فى الفراش أفاعى تعضه ، وكان وهو فى فراشه يرفع طرفه إلى السماء ليتأمل النجوم وهو ساخط عليها ويدقق النظر إلى القمر وهو منه موتور !!

أليس القمر والنجوم آية الليل ؟ الليل الذى لا يحبه ، الليل الذى يخطف منه عفراء فتنأى عنه ! ولكم ود عروة لو تطول يده السماء فتمسح ما فيها من نجوم ويطمس ذلك القمر الفاتن فما له فى فتنته نصيب . بل له فى الشمس والرمال كل ما يرجو من نصيب .

* * *

ويتيقظ عروة ذات ليلة على غناء حاد يحدو قافلة تمر بالوادى فيظن أن الفجر قد أسفر ، ويرهف أذنه لصياح الديكة فتتوالى عليه الصيحة تلو الصيحة ، ويهيج الحادى كلاب الحى فتنبح وتنبح ، وتتحرك الإبل فى مباركها فتحن وتهدر . ويصحو الرضيع من الشياه فيرجع الثغاء إيذاناً بالجوع وطلباً

للرضاع . . . يتيقظ وسط هذا الضجيج فينشط ويغتبط فما هي إلا بشائر الصباح . . . الصباح المحبوب .

ثم لا يلبث أن يغتم وينكمش حين لا يسمع « الهلالى » ينادى : الصلاة خير من النوم . . وحين لا يسمع ترتيلا خاشعاً خلفه مما يلى الدار : « وأقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهوداً » .

فما دام الهلالى لم يؤذن بعد لصلاة الفجر ، وما دام « أبو الفداء » لم يرتل القرآن ترتيلا ؛ فالفجر ما يزال بعيداً . وزاد من همه أن سكنت تلك الصيحات التى سمعها من الديكة والكلاب والإبل والشياه ... وأن تسرّب إليه مع النسمات العابرة فى ذلك الظلام صوت الحادى الرخيم :

ألا قاتـــل الله الحمـــامة سحرة
على الغصن ماذا هيجت حين غنت
تغنت بصوت أعجمى فهـــاجنى
من الشوق ما كانت ضلوعى أجنت

وأعاد الحادى غناءه ، وأمعن عروة فى الاستماع ، وظل الغناء ينساب إلى نفسه فيشجيها . . وفى لحظات بدأ الحداء يتراخى رويداً رويداً ، ويضمحل ويخفت حتى تلاشت آخر نغمة منه فى أجفان عروة وقد انطبقت على سنة خفيفة من النوم اللذيذ .

* * *

راح عروة فى سنة خفيفة من النوم لا يدرى كم طالت من الزمن إلى أن انفتح جفناه على صوت أبى الفداء يرتل: « إن قرآن الفجر كان مشهوداً »؛ فهبّ صائحاً !!

عفراء . . . عفراء . . . عمى صباحاً . . هيا يا ابنة عمى . . فلنتهيأ للمرعى فالصبح منا ليس ببعيد !!

كرر هذا النداء فتيقظت امرأة عمه التى أجابته فى خفوت: ارقدْ لا صبّحكَ الله . . . ما زال أبو الفداء يقرأ !

وصحا عمه حين سمع صوت هند وهى تجيب: «ارقد لا صبحك الله !!» . . فقال : أستغفر الله . . . أستغفر الله . . . ماذا كسبت يا هند فى هذا الصباح حتّى تستقبليه بإيذاء الناس ؟

لم تسمع هند كلام زوجها فغطت فى نومها من جديد وقد مدت ذراعيها لتتلمس عفراء بجانبها حذراً وخوفاً كأن حواليها أشباحاً من الشياطين !!

وهبّ عمه عقال فقبع فى فراشه وقد تلفع بعباءته البيضاء، ولف على رأسه وأذنيه شملة من الصوف المغزول ونادى ابن أخيه فأجلسه إلى جانبه بعد ما حياه تحية الصباح. . ثم بادره بقوله :

أمبكراً هكذا تتيقظ كل صباح يا ابن أخى ؟

أجل يا عمى ! فمن أجل الأغنام أتيقظ ، وللمرعى أتهيأ فالخير فى البكور !!

قال عمه : ولعل لتلاوة أبى الفداء فى نفسك حلاوة . . . فقد سمعته يرتل : « إن قرآن الفجر كان مشهوداً » .

العواطف تتيقظ . . !

أصبح الصباح وعروة بجانب عمه ، فنهض الأخير إلى جفنة بها ماء فتوضأ وصلى صلاة الصبح كما صلى عروة وراءه .

وسمعت هند تسبيحه واستغفاره عقب الصلاة فنهضت إلى حظيرة الأغنام حيث حلبت بعضها؛ثم تهيأت عفراء للمرعى فخرجت هي وعروة يتقدمان الأغنام .

عروة الآن لم يعد غلاماً كما كان ! وعفراء الآن لم تعد طفلة كما كانت !

إنهما يسيران رويداً نحو أول مراحل النضوج !

لهذا بدأت العواطف التي ولدت بينهما طفلة مع طفولتهما تنمو وتتعمق حتى أعلنت عن وجودها في هذه المرحلة من حياتهما . وهي مرحلة تتيقظ فيها العواطف القلبية هادرة كالأعاصير !

خرج عروة وعفراء إلى المرعى في هذا الصباح حيث كانت أشعة الشمس لينة رقيقة ، والندى يلمع فوق سطوح الدور وقمم النجاد ، وكان في السماء جماعات متقطعة من السحاب ، تنقشع آناً وتتلبد وتسود آناً آخر .

وما إن وصلا إلى الوادي حتى كانت أزهار الزيتون تتثاءب وتتفتح رويداً رويداً ، وقد علا أغصانها على غير المألوف

حمامات بيضاء وغير بيضاء ، بعضها يحرك أجنحته فى رفق وهدوء ، وبعضها يرتفع صدره ويهبط وهو يهمهم بلغة غير مفهومة تبعث فى النفس شعوراً غامضاً وإن كان يبهجها .

وتفرقت الأغنام فى المرعى كعادتها بينما عروة وعفراء يتمشيان ويدوران حول الأغنام فى صمت غير معهود .

وشعرت عفراء بقطرة غليظة من الماء تسقط فوق وجهها ففرحت وتهللت وصاحت :

عروة . . ! خير يأتينا . . خير يأتينا . . . هذا هو المطر الحبيب . . وتهلل عروة وصعد نظره إلى السماء وقال : أجل يا عفراء . . . فالسحب مثقلات .

وفجأة انهمر المطر غزيراً . . فجذب عروة عفراء من يدها وصاح : إلى التلّ يا عفراء ! وتوقفت عفراء عن المسير وتهللت للمطر وراحت تستقبله بذراعيها وصدرها فرحة مغتبطة حتى ابتلت ملابسها،فأسرع عروة وخلع رداءه وألقاه على رأسها ليقيها المطر،وظل هو فى قميص أبيض إلى ما تحت ركبتيه .

وسرعان ما توقف المطر الهاطل ، ثم أشرقت الشمس وبدأت الأشعة تجفف ما ابتل من ملابسهما . . . والتفتت عفراء إلى رفيقها وقالت : تقيني بردائك ؟ وأنت ؟ قال عروة : أنا ؟ أنا أقيك بجلدى يا ابنة عمي ! !

خجلت عفراء من ردّ عروة الذى لم تألفه من قبل واحمر خداها الصغيران وقالت : ولكني أحب المطر . . ولم أكن فى

حاجة إلى وقاء ؟ قال عروة وقد تأذّى :

تحبين المطر ولا تحبين رضائى ؟

قالت عفراء : لا يا عروة وأستغفر الله . ما هكذا أردت ! وما هكذا ينبغى أن تفهم ! إن المطر عندنا نحن البدو أمر محبوب ، وأحب أن أتمتع به ما استطعت فما نراه فى العام إلا نادراً .

* * *

بدأت العواطف القلبية تتحرك فى كيان عروة ، وبدأ إحساسه بالميل إلى عفراء يدق ويضطرم . . ولم تكن عفراء بأقل من صاحبها تجاوباً لهذا الإحساس وفرحاً بتلك العواطف ، لهذا أحست عفراء فى عتاب عروة أن به شيئاً . . شىء غير رباط القرابة والألفة ، وأن فى نفسها استجابة لهذا الإحساس الجديد !!

وإلا فما بالها تستريح لردائه يقيها من المطر على كره منها للوقاية ؟ وما بالها تحزن من أجله إن تجاهلته أمها وأغضبته بما كانت تقذفه به من التوبيخ والتأنيب ؟ وما بالها تحس كراهته للدار وحبه للمرعى فتكرهها هى الأخرى وتود البعد والانفراد فى الخلاء الفسيح ؟

إن ما به هو ما بها !! وإنه ليشعر بخاطر فتشعر بهذا الخاطر فى أعماقها . . . ولقد ود يوماً أن يقضى النهارَ كله فى المرعى فتأبت عليه ذلك ظاهراً وإن كانت فى أعماقها تودّ ما كان

يودّ ! إن بينهما شيئاً يرتبطان به غير رابطة الألفة والقرابة فما عسى أن يكون هذا الشيء ؟؟

ترددت هذه الخواطر فى نفس عفراء دون أن تتبينها أو تسميها . . . وأحست بها إحساساً عميقاً بماأبدا من حرص عروة عليها وفرحه بلقائها وحزنه فى البعد عنها وبما قدم لها مراراً من كسر الخبز والتمر الجاف... وإنها لاتنسى كفيه وهما تحملان الماء من البئر فتسقيانها ! ولا تنسى رداءه وقد ألقاه على رأسها وقاء من المطر ، وإنها لتذكر لبن الشاة الذى قدمه إليها مراراً لتشربه وهى تحاول القسمة بينها وبينه وهو يتأبى هذه القسمة !!

ثم إن هناك علامة لا تخطئ . . . إنه على ما يبدو لها لا ينام الليل إلا غراراً .. وإلا فما باله يتيقظ كل ليلة قبيل الفجر قبل أن يرتل أبو الفداء آيات من القرن الكريم ؟

ولقد سمعت أمها مراراً وهى بين اليقظة والمنام تقول له : ارقد لا صبحك الله !! كما حكى لها أبوها ما كان منه ليلة القافلة وما كان من حُداء الحادى وهو يحدو :

ألا قاتــل الله الحمــامة سحــرة
على الغصن ماذا هيجت حين غنت
تغنت بصــوت أعجمى فهــاج لى
من الشوق ما كانت ضلــوعى أجنت

* * *

وزاد هذا الإحساس وثوقاً فى نفسها ما جرى لها يوم أن

تعثرت فى حجر كبير جرح أصبعاً من أصابع رجليها ؛ وتذكرت أن عروة انزعج لما وقع لها فانكب على رجلها وامتص بفمه الدم النازف من الجرح ، ولما لم يقف النزف كتم الجرح بحفنة من التراب ، ثم قطع من طرف ردائه شريطاً وضمده به .

بهذا وذاك أحست عفراء ما بعروة نحوها ، ودب فى قلبها همس خفيف لذيذ ينبهها إلى قوة روحية تختلج فى صدر ابن عمها ، وأنها بهذه القوة سعيدة مبتهجة ، وزاد من سعادتها أنها تحس فى نفسها تفتحاً لاستقبال هذا الشعور الروحى البرىء واستعداداً للحرص عليه والاعتزاز به !

أما عروة فقد كان كما أحست به عفراء بل يزيد !!

لقد بدأ يحيا ويتيقظ . . . إنه لا يتصور الحياة بدون عفراء ، وإن الصباح جميل لأنه يطلع على وجهها الجميل ، والوادى على قفره جنة فيحاء لأن عفراء تجوس خلاله بقدميها الصغيرتين !

إنه لا يرى غيرها فيما حواليـــه من الكائنات ، ولا يحس إلا بها بين مظاهر هذه الطبيعة المشرقة الفاتنة ، وإنه لا يستريح إلى أن يعرج عليهما بعض الرعاة أمثالهما فى شأن من الشئون ، وإنه على معرفته بهؤلاء الرعاة لأنهم جيرانه لينأى عنهم بأغنامه ما استطاع إلى ذلك سبيلا !

وكثيراً ما طاف بهما فى الوادى أبو العيناء والنضر والحارث ورباب والزرقاء وليلى . . وكلهم لهما زميل وجار فلم يهشا للقائهم ولم يرغبا فى التحدث إليهم ، وطالما عمد الاثنان إلى البعد عنهم

تذرعاً بالبحث عن شاة ضالة فيختفيان فى المسارب أو يتوغلان فى الشعاب .

* * *

لم يعد فى نفس عروة خوف من التأخير فى المرعى ، كذلك نسيت عفراء ثورة أمها وغضبها إن تأخرت ، فلم تعد تنزعج لثورتها وإن كانت قد خفت حدتها وهدأت قليلا تعباً وملالا .

وبدأ الراعيان يتأخران يوماً بعد يوم فى العودة ،وامتد تأخيرهما إلى الغروب وما بعد الغروب . . ولكن ثورة الأم بدأت من جديد تزايد وتشتد ، كما بدأت سماحة الأب تنمو وعطفه يكرم ويرق .

ورأى عقال أن يتدخل فى الأمر بين زوجه هند وبين عفراء وعروة ، وأن يضع حداً لثورتها وما تجلبه من الأكدار بحق وبغير حق ، وحاول أن يجرب سلطانه على زوجته ففشل . . . إذ كان سلطان هند أقوى من سلطانه ، وشخصيتها أشد تماسكاً وتأثيراً ، فصبر على مضض ، وتماسك هادئاً دون أن يشعر نفسه بأنه مقهور ، أو أنه مرغم على شىء .

* * *

جلس عروة وعفراء يوماً فوق ربوة تشرف على المرعى والأغنام منتشرة فى جوانبه . . . جلسا وقد طال الصمت بينهما !!

فعروة تائه فى أفكاره وقد ارتسمت على ملامحه علائم

الاهتمام بأمر يخفيه ويحار فيه ، فما هو بمطمئن إليه اطمئنان المتفائل ، ولا هو معرض عنه إعراض اليائس المتشائم !!

ولحت عفراء حيرته واهتمامه دون أن تحس حقيقة ما بذات نفسه ، وأرادت أن تستشف ما به على طريقتها كفتاة .. فصاحت به :

عروة .. ! أتذكر يوم الكبش ؟

فابتسم عروة وقال : آه .. ! ! رفيع ورفيعة ؟ وسكت !

قالت عفراء : لم تعد الشاة إلى الفرار عنا ... ولم يعد الكبش يتبعها !

قال عروة : أتودين يا عفراء أن تعود الشاة إلى الفرار ؟

وأجابت عفراء : لا يا عروة ! ولكنى أود أن يمثلا أمامنا هذه الألفة التى شهدناها مرة فى هذا الوادى ، وأن أمثل أنا ربطها فى حجر حتى لا تفر ...

و زاد عروة : وأن يأتى رفيع فيقف بجانبها ..!

وأطرقت عفراء لحظة ثم رفعت رأسها وقالت : لقد تعجبت جداً يا عروة بما حكيت لى عنهما ... كذلك تأثرت جداً بقصة الأشهل والشهلاء .

ثم نظرت إليه نظرة آسفة وصاحت : أتذكر يا عروة ؟

هاج هذا الحديث الصبيانى العميق فى نفس عروة بعض كوامنها ، ولكنه نشط وتيقظ ونظر إلى عفراء باهتمام وقال : هل تأثرت بقصة الأشهل والشهلاء يا عفراء ؟

وأجابت عفراء : أجل . . . ولكن . . . ولكن قل لى يا عروة !

وهل يعقل الفرس ويحس فيشرف على الهلاك حزناً على أليفته ؟

— قلت لك يا عفراء إننى سمعت هذه القصة من جارنا « الأرقط » وهو خبير بطباع الحيوان ، إن بعض الحيوان أدق إحساساً وأشد وفاء من الإنسان !

وسألت عفراء : وَهل يموت الإنسان حزناً على أليفته إذا ماتت ؟

أجاب عروة : أجل يا عفراء . . . بل إذا هجرته أو ابتعدت عنه !

فتعجبت عفراء واضطربت ثم قالت : ما أظن ذلك يا عروة . . . لقد سمعت منك ما رويت لى عن قصة الأشهل والشهلاء . . ولكننى لم أسمع منك أو من غيرك مثل هذا الكلام فى قصة إنسان !!

قال عروة : تستطيعين يا عفراء أن تسمعى كثيراً من القصص الواقعى الرائع ، لو سمحت لك أمك بالخروج ليلا والجلوس مع صبيان الحى وبناته فى ضوء القمر بباطن السفح مما يلى الدور .

فهناك تسمعين من بعض شيوخ الحى وقصاصه العجب العجاب من هذا القصص .

واهتمت عفراء ونظرت إلى عروة وقالت : بالله إلا ما قصصت على واحدة من هذا القصص ؟!

* * *

واتكأ عروة بمرفقه الأيمن على حجر كبير بجانبه وقال وهو يعبث بعصاه فى الرمال :

كنت فى السفح القريب من الرابية خلف الدور فى ليلة قمراء مع رفقائنا من الصبية والصبيان والرجال وبعض النساء ، وقد التفقنا حول شيخ فزارى من شيوخ الحى على معرفة بأخبار السالفين ، وقد تعود هذا الشيخ الفزارى أن يقص على أهل الحى فى الليالى القمرية كثيراً من القصص الواقعى الذى شهده أو سمع به من غيره من الشيوخ المعمرين .

روى لنا الشيخ الفزارى فى هذه الليلة أن فتى من عرب الجاهلية يدعى « عمرو بن سعد » كان شجاعاً مقداماً تهابه الفرسان وتخافه الشجعان .

ومن شجاعته أنه قطع « وادى نجران » وكان كثير الأسود والنمرة ، فمر به فى طريقه أسد ونمر فنازلهما الواحد تلو الآخر حتى صرعهما وسلخ جلدهما وتلفع به ثم أقبل على قومه فسموه « المرقّش »

وقيل إنما سمّى المرقش لقوله :

الدار قفر والرسـوم كما   رقّش فى ظهر الأديم قلم

* * *

عاش المرقش هذا بجانب دار عمه « عوف بن سعد » فألف ابنته أسماء صغيرة ونما الود بينهما حتى صار إلى حب قوى .

وتقدم المرقش إلى عمه خاطباً « أسماء » ابنة عمه ... ولكن عمه راوغه وزفها إلى رجل آخر سخا فى المهر وبذل حتى بلغ مهرها ثلثمائة ناقة !!

وزفت أسماء إلى زوجها على جهل من المرقش وهو فى إحدى مغامراته فى الفيافى ، ولما حضر إلى الحى أخبره عمه أن أسماء قد ماتت وأراه قبرها مشيداً على عظام كبش مذبوح ! !

ودخلت الحيلة على المرقش فلزم قبر أسماء حتى ضنى وتغير حاله !!

وبينما المرقش يبكى على قبر أسماء إذ سمع غلاماً يقتتل مع الآخر على كعب معه يقول : إنها من عظام الكبش الذى دفن فى القبر وقيل لعمرو بن سعد : إنه قبر أسماء . . !

وعرف المرقش الخبر فجن جنونه واصطحب عبدين من عبيده وخرج يبغى أسماء !

وفى طريقه اشتد عليه المرض ولزمته الحمى فصار يهذى باسمها !

وأعرض عنه العبدان وتركاه بجانب غار كان يألفه راع من الرعاة . . وما زال الراعى به يسقيه الماء حتى عاد لرشده قليلا وتلفت حوله فلم يجد العبدين فأنشد :

يا صاحبيّ تلبثا لا تعجلا
إن الرواح رهين ألا تفعلا
يا راكباً إما عرضت فبلغن
أنس بن سعد إن لقيت وحرملا
لله دركما ودر أبيكما
لا يفلت العبدان حتى يقتلا
من مبلغ الأقوام أن مرقشا
أضحى على الأتباع عبئاً مثقلا

وأنس بن سعد هذا وحرملة هما أخوا المرقش!

وكانت قافلة تمر بالطريق فسمعت شعر المرقش فحملته إلى أخويه . . وما إن بلغهما حتى قتلا العبدين وأسرعا إلى أخيهما . وما وصلا إليه حتى وجداه مريضاً وهو يردد هذه الأبيات :

سما نحوى خيال من سليمى
فأرقنى وأصحابى هجود
فبت أدير أمرى كل حال
وأذكر أهلها وهمو بعيد
سكنّ ببلدة وسكنتُ أخرى
فقطعت المواثق والعهود
فما بالى أفى ويُخان عهدى
وما بالى أصاد ولا أصيد ؛

وصار يردد هذه الأبيات حتى شهق شهقة فمات فيها . . !

* * *

انتهى عروة من قصة الشيخ وسكت !!

ثم تطلع إلى وجه عفراء فوجده وجهاً آخر جديداً لم يره من قبل !!

لقد كان وجهها شاحباً ذابلا تنطق فيه ملامح الرعب والأسى !

وإن فى عينيها لعبرات ترقرق فى المآق يمسكها الخجل عن الانحدار !

وارتاع عروة لما رأى فى عفراء ؛ فسأل : عفراء . . . أأسأت إليك بهذه القصة يا ابنة عمى ؟

قالت عفراء : لا يا ابن عمى ! ما أسأت إلىّ فى شىء ! ولكن أمراً واحداً حيرنى ! وهو : لمَ امتنع عمه من تزويجه أسماء ؟

أجاب عروة : لعله لم يستطع إمهارها كما أمهرها الآخر !

وسألت عفراء : والمهر شىء يحسب حسابه بين الأقارب ؟

وأجاب عروة فى خفوت ومرارة : ربما يا عفراء !

وزادت عفراء : وشىء آخر يا عروة . . . ألم يكن بصاحبته من الوجد ما كان به ؟

وأجاب عروة : بلى يا عفراء !

لقد حدث الشيخ الفزارى أنها كان بها من الوجد ما كان به !

قالت عفراء : ولم تزوجت من غيره ؟

وابتسم عروة ابتسامة مريرة وأجاب : كان أمرها بيد أبيها الذى غالى فى المهر واشتط فيه ، لقد أحب كل منهما صاحبه.. ولكنهما عاشا فى شقاء وحرمان . . . ثم أطرق لحظة وأنشد بعدها :

وما فى الأرض أشقى من محب وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكياً أبداً حزينــاً مخافة فرقة ، أو لاشتيــاق
فيبكى إن نأوا شوقاً إليهم ويبكى إن دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عند التنائى وتسخن عينه عند التلاقى

ثم نظر إلى عفراء وقال : كان المرقش يردد كثيراً هذين البيتين :

أغالبك القلبُ اللجــوج صبابةً
وشوقاً إلى « أسماء » أم أنت غالبه ؟
يهيم ولا يعبــأ بأسماء قلبُــه
كذاك الهوى ، أمرازه وعواقبــه

لَيَالِي الأرق . . . ! !

تكلم فتيان الحي وفتياته فى عروة وعفراء ، وتهامس الناس بأمرهما ، وأصبح الحديث عنهما سمراً للفتيان والفتيات والكهول والعجائز ، ولكن فى صورة همس وحذر وتطلع للحقيقة .

فهذا فتى يقول : إنهما يتأخران فى المرعى كثيراً ، ويتجنبان الحديث مع الرعاة !

وهذا آخر يقول : لقد ضلت بعض أغنامهما فكانت طعماً للذئاب !

وقال ثالث : لقد عرجت عليهما بغنمى ظهيرة يوم ومعى « رباب » وليلى فكانا منهمكين فى الحديث ، فلما رأيانا كفا عنه وتغير وجه كل منهما فكأنما كانا يتكلمان فى سرّ يكتمانه عن الناس .

وقالت امرأة من نساء الحيّ :

سمعت من بعض جيراننا أن أم عفراء كثيراً ما يشتجر الخلاف بينها وبين زوجها عقال بسبب عروة بن أخيه !

هكذا كانت حال عروة وعفراء بين سكان الحى ، وهكذا أصبح القوم يجعلونهما موضعاً لأحاديثهم ومتعة لأسمارهم !

* * *

على أن الأرق الذى دهم عروة منذ ليلة القافلة لم يزل يعاوده فى كثير من الليالى . ولكنه كان يخفيه ويتظاهر بالنوم ، أو يدفق النظر فى النجوم التى كان يلمحها من خلال كوة صغيرة فى الجدار ، أو من فروج ضيقة فى جوانب السقف .

وما كانت لتهدأ نفسه أو يسكن خاطره حتى يسمع « أبا الفداء » يرتل القرآن . . وبعده الهلالى ينادى : « الصلاة خير من النوم !! »

* * *

لقد استطاع عروة أن يخفى قلقه وأرقه عن أهل الدار زمناً طويلا .

أما الآن . . وقد هاجت مواجعه ونفد صبره فهو مضطر إلى أن يصحوَ فى ظلام الليل فيدخل الحظيرة ، أو يطوف فيما حول الدار ، أو يعرج على أبى الفداء فيجلس بجانبه ، أو يميل إلى الهلالى فيعتلى الجدار القصير بجانبه ، أو لا تتفتح نفسه لا إلى هذا ولا إلى ذاك فينحدر نحو الوادى ، ولكنه لا يتوغل فيه . . . فيقضى فيه بقية ليله ثم يعود إلى الدار مع ضباب الفجر وقد بلله الندى وعلق برجليه الحافيتين كثير من الحصى والتراب . . !

وتنبهت امرأة عمه مراراً إلى أرقه ويقظته فى الليل ، فكانت أحياناً تناديه فى سخط ولعنة !!

وأحياناً تتجاهل ما هو فيه فتغمض عينيها بعدما تحتضن

عفراء بجانبها وتعصرها بين ذراعيها القويتين . . وهيهات أن تنام حتى الصباح !

وأما عمه عقال فإنه بدأ كذلك يحس قلق ابن أخيه . . لقد تنبه إلى أرقه وخروجه وكثرة حركاته فى الدار وتطوافه حواليها فما تدخل فى شأنه ، وما حاول أن يستفسر عما يقض مضجعه أو يقلق باله !

إن عمه يحس ويدرك ما بنفسه منذ أمد بعيد . . ولكنه مسلوب العون ، فاقد المساعدة . . أو قل إنه عاجز عن كليهما فسكت . . . سكت على عطف عليه ، وعلى مضض فى نفسه إلى أن تقضى الأقدار بما تريد !!

* * *

ولكن خطراً جديداً بدأ يلوح بوجهه المربد . . وراح يتحفز للوثوب . . !

ذلك أن حمى الأرق قد أصابت كذلك عفراء . . . فهى تتيقظ فى ظلام الليل قبل أن يؤذن الهلالى . . وقبل أن يقرأ أبو الفداء . . وهى تتيقظ حين يتيقظ عروة ! وعبثاً تحاول أن يطبق النوم أجفانها حتى الصباح ! وإنها لتتحامل على نفسها أن تنام فلا تستطيع . . وإنها لتغطى رأسها وتجمع أعضاءها فلا تستطيع . . وكان أشد ما تهتم به فى حرص وحذر ألا تشعر أمها بهذا الأرق وهى بجانبها وذراعاها تطوقان جيدها المسكين ! وكثيراً ما كتمت أنفاسها الملتهبة حتى لا تلفح وجه أمها

بحرارتها فتصحو .

وكثيراً ما وضعت يديها على صدرها لتهدئ من ارتفاعه وهبوطه وتسكن من شدة خفقانه حتى لا تشعر أمها بما هى فيه من ضيق غير معهود !

وإنها لتحاول حين يعتريها هذا الاضطراب أن تكتم أنفاسها فى مرارة ومقاساة حتى يضيق صدرها عن الكتمان فيثور ويخفق كجناح الطائر يصعد فى الخفق والاضطراب .

* * *

كان ما تقاسيه عفراء من هذا الأرق أقسى وآلم مما يلاقيه عروة ، فهو يستطيع التفريج عن نفسه بالقيام والحركة والخروج إلى الخلاء حيث يخفف عنها ما كربها بعيداً عن أعين الرقباء !

أما هى فالويل لها . . ! إنها سجينة الذراعين ، رهينة المضجع الأمين ، فلا عزاء ولا تفريج ، ولا قيام ولا قعود . ولا خروج ولا دخول ، بل لا حركة نابية يشتم منها رائحة القلق المباح . . !

وخطر لعفراء أن تتجاهر بالقلق الذى اعتراها ، وأن تسرى عن نفسها بالحركة والقعود بجانب أمها وهى نائمة .

فلا تثريب عليها إذن أن تدعى المرض أو الحمى ليلة أو بعض ليال . . . وسرعان ما نفذت هذا الخاطر فى ليلة طالت وطالت حتى ظن أن صباحها قد مات !!

وصادف نهوضها من فراشها وإنضاء الغطاء عنها وقعودها

بجانب أمها أن تيقظ عروة فى تلك الأثناء ، وسمع لأقدامه وقع وهو يغلق وراءه باب حظيرة الأغنام فاهتزت أوصالها وارتجفت رجفة شديدة أيقظت أمها فهبت مذعورة من نومها تتحسس ابنتها فإذا هي جالسة بجوارها فصاحت بها : ما بك يا عفراء ؟ ما بك يا ابنتى ؟

قالت عفراء : حمّى شديدة يا أماه منعتنى النوم، وكثيراً ما تزورنى فى مثل هذا الوقت من ليال مضت !

وتحسست أمها جبهتها فما وجدت أثراً للحمى، وإنما أحست ببرودة المقرور فلفعتها بحزامها الصوفى ، واحتضنتها ودفعت بها تحت الغطاء وهى تقول: ما بك نحمي يا ابنتى.. نامى يا ابنتى فإن بك حاجة إلى النوم والراحة بضعة أيام داخل الدار...وعلى عروة وحده أن يذهب إلى المرعى حتى يمنحك الله الشفاء ... قالت هذا وهى تضمها إلى صدرها وتمسح على شعرها بيديها فى رفق وحنان . . !

سمعت عفراء كلام أمها فعلا صدرها وهبط . . ثم همست بينها وبين نفسها : ما نفعتنى الحمى . . وإنما جنت علىّ !

ولم يغتمض للأم جفن وعفراء بين ذراعيها تنتفض كالمحمومة حتى سُمع وقع أقدام بساحة الدار . . . فصاحت الأم فى غضب: عفريت لا ينام الليل ...!! شيطان يدخل ويخرج فلا تستقر قدماه . . !

وسمع عروة هذا الصياح الغاضب فتشجع وقال فى أناة

واضحة : ما أنا بعفريت أو شيطان . . . إنما أنا عروة يا أماه . . !

فردت هند بصوت خافت : ارقدْ لا صبَّحك الله . . !

* * *

أصبح الصباح وأشرقت شمسه حارة زاهية ، وتيقظت عفراء منهوكة ذابلة ، ولكنها تحاملت على نفسها فهبت تصطنع النشاط والقوة ، وكان أول ما صنعت أن غسلت وجهها ويديها فى سرعة ظاهرة ، ثم اقتحمت حظيرة الأغنام توقظ هذه وتركل برجلها تلك . . وهبت حركة بين الأغنام تنبهت لها أم عفراء وهى أمام القدر تفرك العجين فيها بمفرك خشبى تحضيراً لقدر من العصيد الساخن للإفطار . . ! ودخلت هند حظيرة الأغنام فرأت عفراء جادة فى حلب الحليب ، ولمحت عروة واقفاً بالباب ينتظرها استعداداً للذهاب إلى المرعى الحبيب !! ولكن هند منعت عفراء من الخروج إلى المرعى ، ثم سحبتها من يدها ودفعت بها فى فراشها وهى تقول : نامى يا عفراء . . . فإن بك لحاجة إلى النوم !! وخرج عروة وحده إلى المرعى وفى صدره زفرات من الحزن العميق !

* * *

قدمت هند إلى زوجها عقال وقد أدى فريضة الصباح قصعة من العصيد الساخن يتصاعد منها الدخان ، فما نظر عقال إلى القصعة وقد وضعت أمامه على الأرض حتى قال :

لو عروة وعفراء معنا ؟ وردت هند فى تخابث : إن عفراء مريضة . . أما عروة فقد خرج وحده إلى المرعى الحبيب ! . . إن ابنتك ليس لها صبر على المرعى . . ! إنها تحب المرعى أكثر من هذا العصيد ولو مزج بعسل النحل ولبن العصافير . .

واستنكر عقال من زوجه هذه اللهجة الساخرة فقال :

ما تعنين ياهند؟ قالت هند فى نبرة تمازجها الخيبة والأسى :

أعنى أن عفراء ابنتك مريضة بسبب الخروج إلى المرعى !

وأعنى أنها ودت لو تخرج إلى المرعى فى دامس الظلام !!

وتوقف الرجل عن الطعام وقال فى نغمة المستفهم . . . وهو يدرك ما تعنى !!

كلام جديد يا امرأتى !!

وردت هند : لا جديد ولا قديم !

إن عروة ابن أخيك يقلق راحتنا كل ليلة . فهو كالشيطان الذى لا ينام ، أو كالعفريت الذى يطوف بالناس وهم هجود فيفسد عليهم منامهم !

إنه لا ينام الليل إلا غراراً . . . وإنه ليصحو والظلام مخيم على الحى كله فيطوف هنا وهناك ماراً بكل دار وكل خباء ، وقد ينتهى به المطاف إلى المسلك المؤدى إلى الوادى القريب . . ولقد كان تيقظه هكذا كل ليلة سبباً فى صياح الديكة ونباح الكلاب قبل أن يسفر الفجر أو تطل علينا تباشير الصباح .

* * *

ولقد سمعت من جارتنا أم الزرقاء أن عروة كثيراً ما يجلس إلى أبي الفداء، أو يقف بجانب الهلالى وهو يؤذن لصلاة الفجر.

وإن الحى كله ليتساءل : ما بهذا الفتى ؟

وأطرقت هند لحظة . . ثم رفعت رأسها وقالت : يا عقال : لقد سمعت من أم النصر زوجة صديقك المخزومى أن بعروة طائفاً من الشعر يوقظه كل ليلة حيث يتيقظ . . . وحيث تحس به أنت . . وأحس به أنا . . .

وأن هذا الطائف أو هذا الشيطان كما يسميه الشعراء ركبه منذ ليلة القافلة ، ومنذ أن سمع حداء الحادى وهو يغنى غناءه الذى حفظته عفراء عن ظهر قلب . . .

فإن كان حقاً أن ما به هو شيطان الشعر فإليه عنا فما نستطيع معاشرة الشياطين .

وإن كان ما به حنيناً أو نزعة إلى الآذان والصلاة فإليه الهلالى وأبا الفداء .

على أن النكبة ليست فيما عليه ابن أخيك هذا . . وإنما النكبة أن يصيب مرضه هذا ابنتك عفراء . . .

وتفزع عقال وحملق فى زوجته وصاح : أى مرض يا هند؟

قالت هند : أجل لقد أصبحت عفراء مريضة كابن أخيك . . فهى تأرق مثلما يأرق . . وتصحو حيث يصحو . . . وما أظن شيئاً يمنعها من الطواف ليلا حيث يطوف لو لم تكن بجانبى . . ولولا أن بها كثيراً من الحياء والحذر والفطنة إلى

ما يجوز أو ما لا يجوز .

لقد غالبتها الحمى كما تدعى ليلة أمس . . وما كان بها حمى أو ما يشبه الحمى . . وإنما كان بها قلق واضطراب ، لا أكون مبالغة إذا قلت لك : إنه أول مرحلة من مراحل الخطورة التى تنتظرنا من ألفة هذين الصبيين إذا لم نتوقها بالعمل الحاسم والدواء السريع !!

وإن من شهد عفراء ليلة أمس لا يتصور أن تطلع عليها شمس النهار . . .

وإن من شهدها هذا الصباح لا يتصور أنها كانت بين أحضانى ليلا كالطائر الذبيح . . !

فإليك يا رجل ما ذكرته لك ! وحذار أن تأخذك الشفقة بابنتك وابن أخيك فما فى تآلفهما لنا من خير .

* * *

وسكتت هند وأطرقت ، بينما عقال يتحسس عمامته آناً . . ويمسك بلحيته آنا آخر . . وكأن كلاماً يرقص على شفتيه ثم يقف جامداً متخاذلا . . . أو كأن بصدره جموعاً هائلة من الأحاسيس المتناقضة تتزاحم فيه وتتصارع ولكنها لا تجد منفذاً إلى الخلاء !

الرجل طيب القلب ، نقى السريرة ، لا يؤثر ابنته بحب أكثر مما يؤثر به ابن أخيه .

ولكنّ عروة على حب عمه إياه ليس معقد الآمال



لابنته .. فأمها لا تستريح إليه وهو لا يستطيع إغضابها، وهو فوق هذا وذاك معسر وبينه وبين اليسار أمد بعيد!!

وإن امرأته هند لعلى كثير من الصواب أن تحسم الداء قبل وقوعه .

وإنه هو نفسه ليحس ما أحست به هند ويدركه كل الإدراك . . ولكن ليس له حيلة فى الأمر .

فعروة ابن أخيه . . وهو يتيم ، وهو مطيع مهذب وفيه من شيم المروءة والوفاء ما يستحق به الحرص والإعزاز .

وتاه عقال فى أفكاره العاصفة ، ورأى أنه لن ينتهى فى هذه الأفكار إلى أمر قاطع فهبّ من مجلسه قاصداً صديقه المخزومى بينما انصرفت هند إلى بعض شئونها فى الدار .

وفى أمسية هذا اليوم عادت جماعات الرعاة بأغنامهم وهم يرددون أغنية الرعاة :

هنا الوادى ، هنا الوادى	هنا الأغنام منسابـه
وفيهـا الشارف الجبلى	وفيهـا كل حلاّبه
نعود بها مـع الشمس	ويدخـل كلنا بابه
وعروة وحـده يرعى	بعيداً مـلّ أترابه
وما تنفـك عفـراء	عليـه جـد غلاّبه
حنانك يا ابنة العم	وردى عنـه أوصابه

وسمعت هند غناء الرعاة فصرخت فى فزع :

آه . . . وقع المحظور . . !

فى المرَعى البغيض . . !

انتهى الأمر ووقع المحظور كما قالت هند .

وعرف سكان الحى وما وراء الحى ما بين عروة وعفراء ، وأصبح حتما أن تحتجز عفراء فى الدار ، وأن يخرج عروة وحده إلى المرعى !

وكانت هند على حق فيما صنعت . . . فعفراء الآن فى سن التفتح لاستقبال الحياة ،وهى فتاة ليست عادية المظهر والنضج .

فهى فرعاء هيفاء ، قد دق خصرها ونحل ، وارتفع صدرها ونهد ، ذات شعر طويل فاحم يتدلى إلى ما تحت خصرها ، ولها جيد طويل شفاف يغرى بالفتنة ، ووجه ما بين البياض والسمرة ، تتوسطه عينان نجلاوان فيهما تعبير وحلاوة ، تعلوهما أهداب طويلة مرتخية إلى أعلى خديها الناعمين الصغيرين !

أما فمها فدقيق أنيق يفتر عن أسنان بيضاء منسقة النظام والترتيب .

وشفتاها قرمزيتان نابضتان بالدفء والاختلاج !

وهى فوق هذا وذاك جمة الحياء ، شديدة التوقى ، فى حديثها عذوبة وطلاوة ، وفى شخصيتها جاذبية وقوة ، تعرفها بنات الحى بالتفوق والامتياز ، ويقر لها الجميع بسماحة الطبع وندرة العفاف . . !

وأما عروة فقد بدأ يضع قدميه فى أول مراحل الشباب . . .
فهو فتى متوسط القامة ، نحيل البدن ، ضيق المنكبين دقيق الساعدين ، ليس فى صدره من السعة والقوة ما يكون فى صدر أمثاله من الشباب !

له وجه أسمر ، دقيق الملامح ، حاد النظرات ، وكل ما وهبه الله من قوة إنما هو فى روحه وقلبه . . تعبر عنها عيناه المعبرتان ، وجبهته العريضة ، ونظراته العميقة الناطقة بدقة الحس ورقة الشعور . . !

وهو فوق هذا وذاك هادئ المظهر ، لين الجانب ، حلو المعاشرة ، شيق الحديث ، مرهوب الشخصية ، ليس فيه شيء من خشونة البداوة ، وجلافتها ، وإنما تغلب عليه الرقة والحنان والعذوبة التى لا تشوبها الليونة أو الضعف . . !

فتاة هذا شأنها . . وشاعر رقيق كعروة كان لابد أن يقع بينهما من العلاقة الوجدانية ما وقع وقد امتزجا وائتلفا صغيرين .

لهذا أصرت هند أن تحجز ابنتها الشابة الحسناء عن الخروج إلى المرعى ، وأن يعهد إلى عروة وحده رعيُ الأغنام !

* * *

كان على عروة أن يطيع مرغماً وقد وصل أمره مع عفراء إلى ما وصل من التشهير فى نشيد الرعاة . . ! وكان عليه أن يتظاهر بالقوة والرضاء أمام عمه وزوجته برغم ما كان بنفسه من الحزن والألم العميق .

وها هو ذا يخرج بالأغنام وحده ذات صباح إلى المرعى فلا يحس فى الصباح الجميل ما كان يحسه من روعة وفتنة ، ولا يشعر بالشمس الوهاجة المشرقة كما كان يشعر بها من ذى قبل .

وإنها لتشرق بأشعتها الذهبية على قلبه المظلم الكئيب فلا يحس فى إشراقها إشراقة من الرجاء !

ويراه زملاؤه الرعاة فيتهامسون ويزمون شفاههم على ابتسامات ساخرة فيها كثير من التشفى ، وفيها كثير من العزاء والرثاء .

ويصل عروة إلى المرعى وقد نسى غداءه من التمر الجاف وخبز الشعير فما له إليه الآن حاجة . . ويمسك بغصن الزيتون وحده فيلثمه لثمات حارة مشبوبة . . . ويتحسس فيه موضع يد عفراء فيمر به على قلبه ويود لو غرزه فى صدره فيخفيه فى قلبه الحزين .

وهذه أشجار الزيتون . . . ما بالها اليوم واجمة كابية ؟ وأين الحمامات البيضاء ؟

ما بالها هجرت أغصانها لتحط على رءوس التلال من بعيد ؟

وهذه البئر الروية العذبة . . . إنها لم تعد فى نفسه بئراً لا روية ولا عذبة . . . وإنما هى حفرة مظلمة كأنها قبر آماله وأحلامه . .

وهذا السفح المنبسط الطرى ... ما باله اليوم مشوهاً كئيباً ؟

لقد وقف فيه يوم المطر فألقى بردائه على رأس عفراء . . . إنه ليذكر كل هذا فينتفض انتفاضة المحموم . . . ثم يمسك بردائه فيقبله ويحملق فيه بعينين ذاهلتين ، ويشمه بأنفه فتهل عيناه !

ويمد بصره فى الفضاء مداً فيرى التل . . . ذلك التل الحبيب وقد جلس فوقه وعفراء بجانبه ليقص عليها قصة المرقش . . . ينظر إلى التل فيجرى إليه . . ثم يصعده فى تراخ وفتور . . . ويدور ببصره فيه فيرى الحجر الذى اتكأ عليه بمرفقه الأيمن فينكفئ عليه ليقبله ثم يقف أمامه مخاطباً :

أيها الحجر الذى لا يرى ولا يحس . . أستغفر الله . . إنك لترى وتحس . . . وإلا ما بقيت وحدك تنتظرنى وحدى فى هذا المكان :

فى جوارك أيها الحجر سمعت أول هاتف بالسعادة من فم عفراء .

وفى جوارك أيها الحجر قصصت عليها أول قصة من قصص الحرمان .

وفى جوارك أيها الحجر سمعت منها ما ينم عن شعورها ، وشهدت فى ملامحها ما تكتمه فى قلبها عنى وما وددت لو يكتمه حتى الممات .

ترى ؟ أكانت قصة المرقش إرهاصاً بقصتنا ؟ وإلا فما بالها وقد أتيت على نهايتها يربد وجهها وتطرق ، ثم تبادرنى بسيل

من الأسئلة لم تطرق لى على بال ؟

إنى لأذكر أسئلتها وهى واجمة حزينة :

أكان بها من الوجد ما كان به ؟ لم يشتط عمه فى المهر ؟ وهل المهر شيء يحسب له حساب بين الأقرباء ؟ الآن فقط فهمت . . . فهمت وأدركت ما كانت تعنيه عفراء !

فويلى عليها . . وويلى على نفسى لو سخرت بنا الأقدار وراح ينشد :

أعلل فيك النفس ، والنفس غضة
وأعذر فيك القلب ، والقلب حائر
ومالىَ يا عفراء عنك مسالك
إلى العيش لو خانت حظوظى المقادر

وهكذا ظل عروة يناجى كل حجر ، ويخاطب كل صخر ، ويقف عند كل بقعة فى الوادى وطئتها قدم عفراء . ويرى بنظره إلى الأغنام فإذا هى مجتمعة فى بقعة منخفضة قريبة منه ، وقد التصقت كل منها بأختها . ومدت رؤوسها فى الفضاء . . . وسلطت أنوفها للرياح . . . وأصاخت بآذانها فى صمت طويل كأنها تتسمع فى الرياح إلى سر مجهول . . !

* * *

وهكذا عاش عروة وحيداً موحشاً بعد عفراء ، فما شيء هناك يسليه ، وما عاد يتأخر فى المرعى كعادته ، فهو يرجع بالأغنام مع الظهيرة ، ولا يخرج بها من الدار إلا بعد شروق

الشمس، وما عاد يأرق فى ليله ، أو يخرج فيه ليطوف بالحى كما كان ... وما عاد يترقب صياح الديكة أو أذان الفجر أو قراءة القرآن . . . فالنهار لديه بغيض ... والليل لديه حبيب أى حبيب !!

وما عاد يكره الدار كما كان ، وإنه ليحبها كل الحب وإن كان لا يستقر فيها طويلا .. ولكنها مستقر عفراء ليلا ونهاراً ، فهو يراها حين يعود بالأغنام ... ويراها وهم يطعمون الطعام . . ويراها وهى تحلب الأغنام وتجهز العصيد ، وتخبز الخبز وتغزل الصوف بعد الفراغ من شئون الدار..فالدار الآن هى حبيبه ومهبط آماله،والمرعى عدوه ومثار يأسه وأحزانه.

ولقد فطنت امرأة عمه إلى تغير حاله فى الدار والمرعى وفى الليل والنهار فقالت لعمه على مسمع منه :

لقد شفى عروة من شيطان الشعر كما يدعون فأراحنا من أرقه . . وما عاد يحن إلى الهلالى وأبى الفداء . . . ! و . . .

وفهم عمه ما تعنيه امرأته فسكت وأطرق ... أما عروة فقد أشاح بوجهه عنهما وانصرف .

* * *

ولم يكن حزن عفراء وقد انقطعت عن المرعى بأقل من حزن عروة . . . فهى دائماً قلقة مضطربة . . فما تحين الظهيرة حتى يرتفع صدرها وينخفض وتكثر حركاتها داخل الدار فى غير نظام .

وإنها لتكثر من الدخول فى حظيرة الأغنام وهى خالية منها وما ذاك إلا لأن بها باباً يطل على أول مسلك من المسالك النحيفة المؤدية إلى الوادى .

فهى تترقب منه عودة عروة بالأغنام . . . وهى تستحث الوقت فى اضطراب ظاهر وتأفف مكتوم . . . حتى إذا أطل عروة بأغنامه من نهاية المسلك اشرأبت إليه بقلبها ، وتطاولت إليه بجسمها وعينيها النافذتين وما إن يدخل الحظيرة حتى يسكن ثائرها ويعود إلى قلبها فرحة الأمن وإلى وجهها نضرة الحياة !

* * *

دخل عروة الدار بأغنامه فى يوم كئيب .. فما إن رأى عفراء حتى لوح لها بعصاه — أن انتظرى !

وما إن دخلت الأغنام حتى نظرت عفراء إلى عروة وسألته فى لهفة : ما بك يا عروة ؟ ونظر إليها عروة مستفهماً : أجديداً ترين يا عفراء ؟

وأجابت عفراء : أجل يا عروة ! فإن وجهك معفر بالتراب فوق ما به من شحوب واكتئاب !

قال عروة : حلم رهيب أزعجنى يا عفراء وسوف أقصه عليك !

جلس عروة فوق جذع جاف من جذوع النخيل فى مدخل الحظيرة ووقفت عفراء بجانبه تستمع إليه وهو يقول : كنت وحدى علي الربوة التي جلسنا فوقها يوم أن قصصت

عليك قصة المرقش .

أتذكرين يا عفراء ؟ أجل يا عروة . . قل وأسرع . . !

وما هى إلا أن أخذتنى سنة من النوم رأيت فيها حلماً عجيباً!

رأيت الكبش رفيع يدور فى الوادى على غير هدى وهو يمأمئ فى صوت كالذبيح . . . فجريت إليه لأتبين الخبر . . فإذا بى لا أرى الشاة رفيعة بين الأغنام . . فأصخت بأذنى هنا وهناك فسمعت ما يشبه الشخير والحشرجة فجريت نحو الصوت والكبش يجرى ورائى فى مسرب ضيق مظلم حتى ارتطمت بذئب ضخم ينهش بأنيابه فى عنقها . . وما كان لى حيلة إلا أن أرجمه بالحجارة ففر الذئب هارباً . . . ثم تقدمت إلى رفيعة أجرها فإذا جسمها ينتفض، وإذا هى تلفظ آخر أنفاس الحياة . . فوقفت بجانبها حزيناً وإذا الكبش رفيع يتقدم إليها فيشم جسمها وعنقها حتى تلطخ أنفه بالدماء . . !

ثم صحوت يا عفراء من هذا الحلم المخيف على أصوات الرعاة وهم ينشدون أغنية الرعاة . . !

وتفزعت عفراء وامتقع لونها وقالت : وتركتها يا عروة فى المسرب؟

قال عروة : لا يا عفراء . . . هذا حلم . . ! وتلك رفيعة وبجانبها رفيع بين الأغنام !

والتفتت إليهما عفراء فى حزن صامت ثم اندفعت إلى داخل الدار !

* * *

كان عروة يقضى لياليه فى ظاهر الحى مع الشبان يسمر معهم على كره منه ، أو يستمع مع المستمعين إلى القصاص من الشيوخ ولا سيما الشيخ « الفزارى » وهو متحدث ثقة له علم بأحوال العرب وأخبارهم .

وكم ودّ عروة أن تصحبه عفراء فى الليالى القمرية ... وكم ودّت عفراء كما ودّ ، ولكن ما لهما إلى ذلك من سبيل .

ويشاء حسن الصدف أن كان سكان الحى يحتفلون فى هذه الأيام ببعض أعيادهم ، فيقيمون « الدّحية » وهى إحدى رقصات البدو فى الليالى الظلماء !

وفى تلك الأعياد يخرج الشبان والفتيات العذارى إلى ظاهر الحى فيقيمون حلقات دائرية ترقص فيها الفتيات بينما يكون الشبان ملتفين حول الدائرة يغنون ويصفقون بأيديهم على نغمات الغناء حتى أول خيوط الضوء مع طلائع الفجر .

وكان من تقاليد العرب أن ترقص الفتيات وهن محجبات حتى لا يعرفهن الشبان !

وكان مباحاً للفتيات أن يشتركن فى حفلات الرقص دون تحرز أو استئذان من أهلهن . . . كما جرت العادة أن يسمح لأية راقصة من الفتيات أن تلقى بمنديلها على الشاب الذى تختاره !

وكثيراً ما كانت تلك الحفلات سبباً فى إقامة العلاقات الزوجية بين الفتاة وبين الشاب الذى اختارته فألقت عليه

بمنديلها أثناء الرقص . . . وفى حالك الظلام . . !

* * *

لقد كانت هذه الأعياد فرصة سانحة تخرج فيها عفراء إلى حفلات الرقص بعلم من أبيها وأمها فتلتقى بعروة خارج الدار... وما كان بهما حاجة إلى الرقص أو الغناء أو إلقاء المناديل ..!

وإنما كانا ينتحيان جانباً فى ظاهر الحى يتحدثان ما شاء لهما الحديث .

وودت عفراء فى إحدى الليالى أن تستمع إلى أقاصيص « الفزارى » فسألت عروة فى ذلك . . . ولكن عروة تململ واضطرب . . . فسألته عفراء : ما بك يا عروة ؟

فأجاب عروة : كفانا ما قاسيناه من قصة الفزارى عن المرقش !!

قالت عفراء : هذه قصة قصصتها أنت عنه ! فما علينا لو استمعنا إلى غيرها من « الفزارى » فقد يكون فيها ما نستبشر به . . . هيا يا عروة هيا . . . ولا تكن متشائماً . . !

ومضى عروة وعفراء إلى حيث الفزارى وقد تربع على الأرض والتف السمّاع حوله . . وما إن رأى القوم عروة وعفراء حتى رحبوا وتعجبوا . . .

ثم جلسا مع الجالسين حيث بدأ الشيخ حديثه قال :

* * *

كان عبد الله بن عجلان فارساً وشاعراً مفلقاً من شعراء

الجاهلية القريبة من الإسلام .

خرج يوماً إلى شعب من شعاب نجد ينشد ضالة له ! فشارف ماء يقال له « غسان » وكانت بنات العرب يقصدنه فيخلعن ملابسهن ويغتسلن فيه .

فلما علا ربوة تشرف على الماء راح ينظر إليهن وقد خرجن جميعاً وانصرفن إلا واحدة منهن فإنها بقيت شبه عارية . . . تمشط شعرها وتسبله على بدنها . . . !

وكان عبد الله يراها ولا تراه ، فذهل من بياض جسمها فى خلال شعرها الأسود .. ثم علق بها شوقاً حتى ما استطاع أن يركب راحلته ، وفى ذلك يقول :

لقد كنت ذا بأس شديد وهمة
إذا شئت لمساً للثريا لمستها
أتتنى سهام من لحاظ فأرشقت
بقلبى ، ولو أستطيع رداً رددتها

وكانت حبيبته تلك هى « هند بنت كعب » .

فلما رآها قال : هذه والله الضالة التى لا ترد ، ثم عاد وقد تمكن الهوى منه فأخبر صديقاً له بهذا . .

فقال له صديقه : اكتم ما بك . . . واخطبها إلى أبيها فإنه يزوجك . . . وإن أشهرت عشقها فى الشعر حرمتها . . !

وهنا تفزعت عفراء وسألت عروة فى همس : ونشيد الرعاة ؟! فربت عروة على كتفها ولم يجب ، واستمرا يستمعان !

قال الشيخ : وخطب عبد الله « هند » إلى أبيها فأجاب : فتزوجا ، وفرحا معاً وطاب لهما العيش !

ولكن الوشاة — أخزاهم الله — سعوْا بين أبيها وأبيه فوقع العداء بينهما وأرغم عبد الله على طلاقها ولم يكن أنجب منها .. وفى ذلك يقول :

ظلقت هنداً طائعاً فندمت بعـد فراقها
فالعين يذرف دمعهـا كالدّر من آماقها
خودْ رَدَاحٌ طفلـة ما الفحش من أخلاقها
ولقد ألـذّ حديثها وأسرّ عند عناقها

* * *

وخطب هند رجل آخر فتزوجها ودخل بها . . . أما عبد الله فقد أنهكه الحب حتى مرض وساءت حاله ، فأتوا له بعجوز تضرب الحصى فما إن رأته حتى صاحت : هذا — والله — عاشق !!

اذبحوا له شاة وأطعموه قلبها . . فقدموا له قلب الشاة فأكل منه وما برئ فقال :

أما لشاتكم هذه قلب ؟ ومن شعره فى هند وهو مريض :

قد طال شوقى وعاد لى طربى من ذكر خود كريمة الحسب

وقوله :

خليلى زورا قبل شحط النوى هندا
ولا تأمنا من دار ذى لطف بعدا

غداً يكثر الباكون منا ومنكمو
وتزداد داري من دياركمُ بعدا

وظل عبد الله في رقدته ، فلا طب داواه ، ولا سحر شفاه ، حتى مات !!

وما انتهى الشيخ من حديثه حتى انصرف عروة بعفراء إلى الدار وهو يقول :

أولها حلو ، وآخرها مر ، رحمه الله !

ليلة اللقاء . . . !

ظل عروة يرعى الأغنام وحده فى الوادى من الصباح إلى الظهيرة وهمه يزداد يوماً بعد يوم . وتعلقه بعفراء ينمو بقلبه ويتأصل .

لقد أحس بقلبه — وقلب المحب صادق — أن ثمة شيئاً ينتظره . . . شيئاً يتخوف منه أكثر مما يستبشر به فأصبح صدره مرتعاً للوساوس والأوهام . . . فتارة يحس بالتفاؤل فيبسم وتنفتح نفسه وتنبسط أسارير وجهه وتنبض كل جارحة فيه للحياة . وآناً يطغى عليه اليأس فينقبض ويتجهم وينطوى على نفسه فلا يجد من سلوى غير قول الشعر ومناجاة عفراء .

لقد طاف فى المرعى فناجى كل ربوة ، وتحدث إلى كل تل ، ووقف أمام كل منبسط ودار حول البئر وقبل أحجاره ، وجلس تحت ظلال الزيتون فخاطبها واستلهم أسرارها وسبحت نفسه فى ظلالها .

نظر عروة إلى تل كان قد جلس فوقه هو وعفراء فأنشد :

يا أيهـــا التل الحبيب حدث عن العهد الخصيب
وابعث لعفـــراء التحيـ ـة من بعيد أو قريب
أو قـــل لعفراء التى أذكت بمهجتى اللهيب
إن ابن عمك مـــدنف صبٌ بوحدته غريب

هكذا كانت حال عروة فى المرعى حين كان يرعى الأغنام وحده ، فما كان يعزيه فى وحدته إلا نفثاته الشعرية التى كان يتفجر بها قلبه كلما طافت به الذكرى أو هاجت مواجعه ما فى الوادى من ذكريات الطفولة السعيدة .

ولقد كانت الساعات التى يقضيها ليلا مع عفراء بعضاً من هذا العزاء .

قابلته فى إحدى ليالى « الدّجية » فلم يقصدا إلى استماع القصص من القصاص ، وإنما انسربا بعيداً عن الحى فى طريق ضيقة مؤدية إلى الوادى . تحفها من الجانبين بعض الكثبان الرملية الصغيرة ، وعلى كثب من الكثبان جلسا يتحدثان .

* * *

قال عروة وقد انتعشت نفسه : الليل يا عفراء جميل . . ووحدتنا هنا أجمل !

قالت عفراء : أجل يا عروة . . . لو دام الليل . . أو دامت الوحدة !

وتفزع عروة وصاح : ما تعنين يا عفراء ؟

قالت عفراء : أعنى أن هذه الساعات لن تدوم لنا طويلا ، وأن هذه الوحدة هى اختلاس من الزمان .

واطمأن عروة إلى هذا الشعور فى نفسها وإن كان قد أحس فيه بعض ما يحسه هو أحياناً من كدر يشوبه ، ولكنه

تفاءل وقال : ستدوم لنا السعادة يا عفراء ما دام قلبك لى !

ونظرت إليه عفراء .. وطالت نظراتها بينما عروة حالم فى نشوة حلوة طويلة لم يتيقظ منها إلا على صوت عفراء تقول : خير لنا يا عروة أن نعود إلى الدار !! .

فحسبى ما ألاقيه من أمى بسببك ؟ ! وحسبى ما ألاقيه من صويحباتى فيما يبدين أمامى من حديث مبهم وإشارات بعيدة . إشارات أنا أدرك مغزاها وأتجاهلها !

وإن أشدّهن اهتماماً بما بيننا هى « الزرقاء » !!

وصاح عروة : ذكرتنى يا عفراء ! وأستغفر الله إن كنت لم أنبئك حتى الآن !!

لقد حضرت إلى الزرقاء وأنا وحيد فى المرعى فى يوم عاصف فاستدفأت بنارى ثم انصرفت !

قالت عفراء : وما فى هذا يدعو إلى الاستغفار يا عروة ؟ إن الزرقاء صبية طيبة القلب ، وإن كان فيها نزعة إلى العبث البرىء . . .! فلا عليك من هذا — يرحمك الله — .

ومضت لحظات من الصمت قالت بعدها عفراء :

سمعتك يا عروة تهمهم بكلام من الشعر وأنت وحدك ! وسمعت من أمى أن شيطان الشعر كان قد ركبك منذ ليالى الأرق . . !

وأجاب عروة . . . أجل يا عفراء . . . وما زال يركبنى . . .

وسألت عفراء : أنشدنى بعضاً من شعرك !

فقال عروة : على أن تخبريني أولا : ما رأى أمك فىّ ؟

قالت عفراء : إن أمى لا تكرهك يا عروة . . . ولا أجزم بأنها تحبك !!

قال عروة . . . أوَلا تحبنى من أجلك يا عفراء ؟ !

وصمتت عفراء لحظة . . ثم صاحت : آه ياعروة لو تدرى ! لو تدرى ما أقاسيه بسببك من أمى هذه ؟

إن ضراعاً هائلا يقع بيني وبينها كل يوم من أجلك ، وإن حبها الشديد لى قد يفتح لى باباً من الأمل فى الانتصار عليها . .

وأطرقت فى همود وصمت . . . ثم نظرت إلى عروة قائلة : نشدتك الله إلاّ ما أعفيتنى من هذا الحديث . . . أعفنى . . . أعفنى منه يا عروة وأنشدنى من أشعارك :

أحس عروة بما تقاسيه عفراء من أجله ، فأعفاها من الحديث وراح ينشد :

تحملت من عفراء ما ليس لى به
ولا للجبال الراسيات يــــدان

كأن قطاة علقت بجناحهـــا
على كبدى من شدة الخفقان

وما سمعت عفراء ما أنشد عروة حتّى التهبت وجنتاها وراحت تقول : هات يا عروة فأنشدنى ، فأنشد :

فعفراء أرجى الناس عندى مـــودة
وعفراء عنى المعـــرض المتوانى

فاضطربت عفراء وصاحت : لا ــ وأبيك ــ يا عروة . . . إننى لست كذلك !

واستمر عروة ينشد :

أعلل فيك النفس ، والنفس غضــة
وأعذر فيك القلب ، والقلب حائر
وما لى يا عفــراء عنك مســالك
إلى العيش إن خانت حظوظى المقادر

وتفزعت عفراء أكثر مما تفزعت ، وقالت فى نغمة يخالطها الأمل : قد لا تخونك الأقدار يا عروة !!.

* * *

التفت عروة وعفراء إلى السماء وحدّقا فى الآفاق البعيدة المترامية ، فإذا ضوء خافت باهت يغرى بالسكون والتأمل . . . فسكن الاثنان ما سكنا ، وسبح كل منهما فى خواطره وأحلامه التى تلاقت أخيراً فى نهوض عفراء وهى تقول : هيا يا عروة . . فالليل يمضى ، وتباشير خافتة من الضوء قد لاحت فى الأفق البعيد !

وهبّ الاثنان وسارا حتى وصلا إلى غير بعيد من الحى ، فسلمت عفراء وودعت ، وانحرف عروة إلى طريق آخر يؤدى إلى الخلاء . . .

وما سار عروة أو كاد حتى صاحت به عفراء فى همس : عروة . . !

ماذا يا عفراء ؟ .

قالت : شعرك الذى أنشدتنى إياه . . . إياك أن تشهرنى به . . . إياك !!

وأجاب عروة فى ثقة واطمئنان : لا تخشى شيئاً يا عفراء .. فأنا لا أجهل عاقبة من أشهروا حبهم فى أشعارهم !!

وهمت عفراء بالانصراف . . . وقبل أن تحرك قدميها صاحت فى لهفة وفزع :

وأنشودة الرعاة يا عروة !!

قال عروة : أغنية الرعاة ليست من شعرى يا عفراء . . ! فاطمئنى . . ولسنا مسئولين عما يدعيه علينا غيرنا من الناس . . على أنها أغنية صبيانية اتخذها الرعاة الغلمان سلوى فى غدوهم ورواحهم فلا تثريب علينا فيما ينشدون .

وانسابت عفراء فى دروب الحى إلى أن دخلت الدار ، بينما طاف عروة بظاهر الحى قليلا ، ثم عاد إلى الدار بعد حين .

* * *

انتعشت نفس عروة بعد هذه الليلة انتعاشاً حارًّا ، وتفتحت نفسه للحياة قليلا ، وما عاد يعاوده كمده وحزنه أو تستولى عليه وساوسه وأوهامه كما كان .

وإنه ليضحك أحياناً لما يضحك ويجتمع بأقرانه الشبان فى منتدياتهم بظاهر الحى ويتحدث إليهم فيما يتحدثون . . .

ولم لا يفرح ويبتهج وقد لمس وأحس ما بنفس عفراء له . . وأدرك بقلبه وعقله أن ما بها هو ما به ، وأنها حريصة عليه حرصه عليها ، وأنها قد فهمت ما يعنى وما يرجوه من هذه المودة ، أو قل من هذا الحب الحار المتبادل بينهما .

وإلا فما شأنها بشعره فيها؟ وما لذتها فى الاستماع إليه ، ثم . . . ما خوفها واضطرابها من التشهير بها لولا أنها تعلم ما عاقبة المحبين إذا اشتهر حبهم أو شاع . . . !

إنها على كل حال قد فهمت وأدركت . . وإنها على كل حال مبتهجة لهذا الإدراك .. وإنها لتعمل جاهدة على تنمية هذا الشعور ورعايته ، وعلى إزالة الأشواك من طريقه بما بينها وبين أمها من صراع .

لقد اهتم عروة بفرحه هذا فأعلن عنه وابتهج به كما يبتهج الأطفال فى أعيادهم . .!

لقد اشترى لنفسه قميصاً جديداً من الخز وبُردين من أبراد اليمن بما كان قد ادخره فى الحين بعد الحين من دريهمات حصل عليها ثمناً لخيوط من الصوف باعها . . . وإنه ليلبس الحلة والبردين فى المرعى وغير المرعى تفاؤلا بما يرجوه من مستقبل ناعم بجانب عفراء .

ولم تكن عفراء أقل منه ابتهاجاً . . . لقد ظهر نشاطها فى الدار . . .!

فهى تتيقظ مبكرة لتحلب الشياه وتجهز الطعام وتصنع

القهوة لأبيها وتعاون عروة فى إخراج الأغنام إلى المرعى... وإنها لتعاون أمها فى عجن الخبز وإنضاجه..وإذا بقى وقت قبل الظهيرة شغلته فى نقش الصوف وغزله إلى أن يعود عروة مع الأغنام.

* * *

فطنت هند إلى ابتهاج عفراء ونشاطها . . . كما لحظت تهلل عروة وانتعاشه فداخلها شىء من الخوف والتوجس وإن لم يدم ذلك التوجس طويلا !

ولقد كانت هند على حق فى أن تحذر وتتوجس !!

لقد كانت عفراء على ما بها من نشاط ظاهر تخفى فى نفسها اهتماماً عميقاً يصحبه أحياناً فترات من الفكر والتأمل ..! فهى تعلم ما بقلب عروة من الحب والحرص والوفاء . . وإنها لتعلم ما يعتزمه ابن عمها وما توده هى الأخرى من جانبها ، كما تعلم شعور أمها نحو هذه العلاقة العفيفة .

وإنها لتتذكر ليلة اللقاء وتستعيد ما سمعته من شعره فيها . . . ذلك الشعر الذى كانت تردده همساً فى تطوافها بالدار وفى حظيرة الأغنام وهى تحلب الشياه . . !

رددت يوماً وهى فى حظيرة الأغنام قول عروة :

أعلل فيك النفس والنفس غضـة
وأعذر فيك القلب ، والقلب حائر

وما لى يا عفـراء عنك مسـالك
إلى العيش لو خانت حظوظى المقادر

وقوله :

فعفراء أرجى الناس عنـــدى مودة
وعفراء عنى الغافـــل المتوانى

وسمعت أمها على غرة منها ما رددت من الشعر فصاحت بها :

عفراء . . . ألبنـــاً تحلبين. . . أم شعراً تنشدين ؟

فأجابت عفراء : لا يا أماه . . ! كلام أغنى به وأنا أحلب الشياه !

أوتذكرين يا أماه . . . كيف كنت تغنين وأنت تنضجين الطعام ؟

قالت هند : ما كنت أغنى شعراً يا ابنتى ! وإنما كنت أردد رجزاً حفظته أنا وغيرى لفتى من بنى شيبان قاله وهو ينازل الشاعر الفاتك عمرو بن معد يكرب !!

وتلعثمت عفراء واضطربت وقالت : هذا شعر سمعته أنا ورفيقاتى من القصاص ،.وأظنك تعرفين يا أماه الشيخ « الفزارى » وتسمعين عن قصصه ليلا بظاهر الحى !

وأحست أمها وأدركت . . . ولكنها تظاهرت بالاقتناع وانصرفت إلى ناحية أخرى من الدار بينما عفراء جامدة فى مكانها وقد زمت شفتيها على أنملة من أناملها وراحت تعضها عضاً .

* * *

دخل أبو عفراء داره مساء ذلك اليوم وقد تأخر خارجها فى

شأن من شئونه .

وما إن رأته زوجته هند حتى صاحت به : يا رجل . . . رضينا بأغنية الرعاة وسكتنا عنها فما فيها ما يضير ابنتنا عفراء !

أوَنرضى أيضاً عن شعر يقال فيها فتشتهر به ؟

واهتم أبوها بالخبر وتطلع إلى هند فى هدوئه المعهود وقال : أىُّ شعر يا امرأتى ؟

قالت هند : شعر فى عفراء . . . وسمعته من عفراء !!

وصاح الرجل : من عفراء نفسها ؟

وأجابت هند : أجل . . . من عفراء نفسها !

قال الرجل : ولمن الشعر يا هند ؟

وتخابثت هند وأجابت :

أتسأل لمن ؟ . . أتجهل ؟ . . ومن يكون غير ابن أخيك عروة !!

ولم يتفزع الرجل لما سمع . . فما كان يتوقع غيره . . ! وكل ما صنعه أن تحسس عمامته بيديه ثم ألقى بحزامه وعصاه على المصطبة وقال وهو يقعد : الحمد لله على أن سمعتِ الشعرَ يا هند من عفراء وحدها ! ثم أطرق !!

قالت هند : والحمد لله على أن يكون هذا الشعر الذى سمعته من عفراء إيذاناً بنهاية عروة فى دارنا .

لن نستطيع إيواء عاشق لابنتنا فى دارنا . . . وبجانبها !

لن أطيق تحمله بعد اليوم . . . وإلا فإليك دارَك بخيرها

وشرها وخلّ لى عن ابنتى . . وإليك ابن أخيك !

* * *

قذفت هند بهذا التصريح الأليم فى نغمة يمازجها العزم والإصرار . . . ثم دخلت الحظيرة فرأت عفراء مطرقة على جذع من جذوع النخيل الجافة فأمسكت بيدها وجرّتها ثم انتحت بها ناحية من الدار .

أما الرجل فلم يطل به التفكير أو الإطراق طويلا .

إن الأمر أمامه لا يستدعى تفكيراً ولا إطراقاً . . . وإنه الآن بين واحد من أمرين :

فإما أن يطيع عطفه على ابن أخيه فيبقى عليه فى داره ويتحمل بذلك غضب امرأته وما عساه يحدث مما لا تحمد عقباه .

وإما أن يحسم الداء قبل وقوعه كما قالت له زوجه ، وأن يقسوَ على نفسه وعلى ابن أخيه قليلا فيعزله عن الإقامة فى داره ولو إلى حين فيبقى بذلك على أهله ويستريح مما يتوقعه من هموم وأكدار .

تأمل الرجل فى هذين الأمرين فاقتنع بالأخير منهما وهبّ لتنفيذه وإن كان التنفيذ يوجعه ويضنيه .

ودخل عروة الدار فى تلك الأثناء فناداه عمه :

تعال يا عروة . . . تعال إلىّ يا ابن أخى !

وأقبل عليه عروة فحياه فى أدب وانكسار ثم جلس بجانبه

وراح عمه يحدثه :

اسمع يا ابن أخى ! إنك قد بلغت الآن مبلغ الرجال ، فلا خوف عليك إذا أنت اتخذت لنفسك داراً بالحى قريبة منا ، وأظنك تستطيع أن تعيش من عمل تحترفه الآن .

وإن صلاحيتك للكسب لواضحة فى هذا القميص الجديد الذى ترتديه !

وإنى لعمك دائماً . . . وأنت ابن أخى دائماً فأطع عمك وتوكل على الله . . . !

لم يدر إلا الله وحده كيف وقع هذا الكلام فى نفس عروة !! ولكنه رفع وجهه إلى عمه فى توسل وقال : وأجىء إلى هنا بعض الأحيان يا عمى ؟

وتوجع عمه لحاله وقال : أجل يا بنىّ ! وأزيد : إن عفراء لك . . . ولن تكون لسواك !!

عفراء ترحل وعروة يعود . . . !!

لولا جملة كريمة سمعها من عمه الكريم فى موقفه الرهيب لقضى عروة نحبه !


أجل ؛ لولا هذه الجملة : « إن عفراء لك . . . ولن تكون لسواك » لكان خروج عروة من دار عمه خروجاً من الدنيا أو من الجنة .

وعلى هذا الوعد الكريم ، وفى تلك اللحظة الرهيبة التى لا يدرى سببها المباشر خرج عروة من دار عمه ، واتخذ له داراً قريبة فى الحى بمعاونة صاحبين له من بنى عامر كانا يألفانه وينطويان له على حب وإخلاص .

كانت دار عروة الجديدة بقعة صغيرة من الأرض تحيطها أربعة حوائط ، ويسقفها بعض من الأغصان الجافة وجريد النخيل .

ولم يكن عروة يعنى بداره أكانت كما يحب أو كما يكره ، وإنما كان يعنيه شىء واحد وأمل واحد هو الحصول على عفراء التى وعده بها عمه ومناه بنعيمها بعد أن لم يكن إلى نعيمها سبيل.. وفى هذا يقول :

دعانى للمنى عمى دعانى ومنانى بعفـــراء النعـــيما
ولولا جملة نطقت بفيه لكنت على ثرى الدنيا هشيما



وهل تدرى عفراء هذا الوعد ؟ وهل تعلمه فيكون عزاء لها عما فقدت من بعد عروة عن الدار ؟ اللهم لا . . . إنها لا تعلم سوى أن عروة اتخذ له داراً جديدة بالقرب منهم كما أخبرها أبوها . . . وإنها لتعلم علم اليقين الذى يجهله عروة سبب هذا الخروج . . . فهذا وذاك عندها مجتمعين أول نازلة من نوازل العذاب فى حياتها وحياته .

أما عند عروة فهو أول بارقة من الأمل فى حياته وحياتها وإن كان بعده عنها يوجعه ويضنيه . ولم لا . . . ألم يعده عمه بعفراء ؟ وأنها سوف تكون له ولن تكون لسواه !!

* * *

لم ينقطع عروة عن زيارة عمه فى داره ، فهو يلم بها فى الفترة بعد الفترة ، فتلقاه هند بشىء من المجاملة على خلاف عادتها ، وتأنس بلقائه عفراء وتسأله وتلح فى السؤال عن حاله .

ولقد هدأت نفسه واطمأنت حين رأى عفراء كما تركها ... إن فى عينيها بريق الوفاء والإخلاص ، وإن فى ملامحها وحركاتها حرصاً على العهد وتمسكاً بالمودة والألفة التى لا تنساها . . . حتى لقد أحس أن بعده عن دار عمه قد ألهب عواطف عفراء نحوه وحرك شجونها أكثر مما كانت .

وأثر هذا الإحساس فى نفسه فزاد من وجده ، واعتزم أن يتقدم بأول خطوة فى سبيل عفراء .

* * *

وكانت عفراء فى ذلك الحين مطمع أنظار الحى كله شبابه ورجاله .

لقد تم نضجها واكتملت أنوثتها فأصبحت زهرة الحى وريحانته ، وإن قلوباً كثيرة لتتطلع إليها وتتشوق لرؤيتها وتتمنى إدراكها بكل ما تستطيع من بذل وتضحية .

وتقدم إلى أبيها وقتئذ شاب لشيخ من شيوخ الحى وعيونه يطلب يدها . . . ولكن أباها لم ينس عهده لعروة فتخلص بحيلة مقبولة ، وعلمت عفراء بأمر هذه الخطبة فتجهمت وأعرضت !

وتقدم لخطبة عفراء شاب آخر يمانى فما وجد من أبيها غير ما وجد الأول ، وما كانت عفراء إلا أكثر تجهماً وإعراضاً .

وقعت هاتان الخطبتان فى دائرة من الكتمان فلم تتسرب أخبارهما ، غير أن جارية من جوارى الحى علمت بأمرهما — وعل مصدر علمها دار عفراء — فأسرعت إلى عروة وأسرت إليه بالأمر فجن جنونه وثار ثائره وود لو كان عقاباً كاسراً فيخطف عفراء ويصعد بها إلى السماء !

نفد صبر عروة يومئذ فعاودته همومه وأحزانه ، وبدأ التفكير القاتل يغمره فى كل أوقاته وأوشك اليأس أن يتسرب إلى نفسه ، وأمسى يأرق من جديد فيتجرع مرارة السهد وحده ، وإنه ليخرج ليلا فيطوف فى دروب الحى ويتفقد ذكرياته بها . . . وربما جرته قدماه إلى صاحبيه العامريين فيوقظهما من النوم

عل فى لقائه بهما عزاء عما يقاسيه .

لقد كان يعيش على الأمل . . . الأمل الذى لا يشرق نوره إلا من وجه عفراء ، ولا يتفتح نوره إلا فى صباحها الجميل ، وان ما قاساه فى سبيلها من قسوة أمها إنما كانت آلاماً شيقة بالنسبة لما يلاقيه الآن من عذاب ! إن ألمه الآن ممض حقاً ، وإن حزنه لبالغ عميق !

لقد بدأ الخطاب المعجبون حملاتهم وكلهم من ذوى الجاه واليسار ، وإنه لا يستطيع منازلتهم فى شىء لأنه خالى الوفاض ، ولم تمنحه الأيام فسحة من الوقت بعد خروجه من دار عمه ليناضل ويكافح حتى يحصل على اليسار .

فالأيام قد دهمته قبل أن يستعد لها . . . وعفراء تتطاول إليها أعناق الخطاب وكلهم لها كفء إلا هو .

* * *

فى تلك اللحظات اشتد الحزن على عروة ، وحزبته الهموم ، وبدأت موجات من الذهول تنتابه ، وغمرات من الشرود تطغى عليه فساءت حاله وأضحى كالشريد العاجز الذى لا يملك من أمر نفسه شيئاً .

وكان لعروة عمة اسمها هند تسكن حياً من أحياء بنى عذرة ، فلما ضاقت نفسه بما يقاسى ذهب إليها ليستنجد بها وما إن رأته عمته حتى صاحت به :

عروة بن أخى ؟ ما بك يا عروة ؟ أرى نحولا وهماً

ما عهدتهما بك !!

وأطرق عروة هنيهة ثم رفع رأسه وأنشد :

تحملت من عفـــراء ما ليس لى به
ولا للجبـــال الراسيات يـــدان
كأن قطـــاة علقت بجناحهـــا
على كبـــدى من شدة الخفقـــان
فيارب أنت المستعـــان على الـــذى
تحملت من عفراء منذ زمـــان

وفطنت عمته لحاله ، وتيقنت من قصته فقالت له : وما تطلب يا ابن أخى ؟

قال عروة : يا عمة ! إنى لمكلمك وإنى لمستح منك . . . ولم آت إليك إلا حين ضاقت بى السبل وأظلمت الدنيا فى وجهى !

ليس لى يا عمة أمل غير عفراء ... علقتها صغيراً فعلقتنى ؛ وتمكن الحب بين قلبينا ولا عيش لى إلا بها . ولقد لحقت الآن بالنساء ولحقت بالرجال وأجدنى عاجزاً عنها بما أنا فيه من حال !

وقوم هناك يا عمة يخطبونها وكلهم أحسن منى حالا . . . فبالله إلا ما كلمت عمى فيها ورحمت ابن أخيك فيما يلاقى من ضنى وعذاب ؟!

فيا ليت محيانا جميعاً وليتنا إذا نحن متنا ضمنا كفنان

* * *

سمعت عمته ما تحدث به فرقت له وحدبت عليه وقالت :
يا عروة : خفف عنك ما بك وتفاءل بالمستقبل خيراً ، وإنى لأعلم عطف عمك عليك وإعزازه لك ، كما أحسّ رغبة عفراء فيك وحرصها عليك . . .

وصاح عروة فى لهفة : أجل يا عمة . . . ولكن أمها . . . .
ولم يكمل عروة جملته حتى صاحت عمته :

ما دام أبوها معك ، وما دامت هى لا تريد غيرك كما علمتُ فبينكَ وبين ما تريد أمد قصير !

وانطلقت أسارير وجه عروة لما سمع من عمته ، وطيب خاطره هذا العطف فشكر لها وانصرف !

أما عمته هند فقد هبت من وقتها إلى أخيها عقال ؛ فما إن رأته حتى صاحت به :

يا أخى : قد أتيتك فى حاجة أحب أن تحسن فيها الرد ، فإن الله يأجرك بصلة رحمك إن قضيت ما أسألك !

قال أخوها : قولى يا هند : فلن تسألى حاجة إلا رددتك بها . . .

قالت : تزوج عروة ابن أخيك بابنتك عفراء . . .

قال عقال : ما عنه مذهب . . . ولا هو دون رجل يرغب فيه . . ولا بنا عنه رغبة ! ولكنه ليس بذى مال . . . وليست عليه عجلة !

قالت هند : ولكن على عفراء عجلة !

قال عقال : وكيف تدرين ؟

قالت : تناثر الأمر إلى بعض جوارى الحى فتحدثن به !

قال عقال : تحدثن به . . . أم تغنين بشعر عروة فى عفراء ؟ !

قالت هند : لا يا أخى ! لا تصدق كل ما يشيعه الناس . . . وعروة وإن قال شعراً فى عفراء فهو شاعر بطبيعته ، وهو ضنين على التشهير بابنة عمه ورفيق طفولته وصباه . . . فبالله إلا ما رحمت ابن أخيك ووفيت بعهدك له . . فما بقى فيه من عيشه إلا الذّماء !!

وتأثر عمه مما سمع فأطرق . . . ثم رفع رأسه وقال سننظر . . . سننظر يا أختى حين أسوق هذه الرغبة إلى أم عفراء . . !

وانصرفت هند من عند أخيها لتقول لعروة :

عمك يقول فيك . . . ما هو دون رجل يرغب فيه . . . ولا بنا عنه رغبة . . . ولكنه ليس بذى مال وليست عليه عجلة . . !

* * *

عرف عروة من تصريح عمه لعمته أنه بدأ يغير رأيه فيه . . كما بدأ يتناسى عهده الذى قطعه على نفسه ، وتيقن أن وراء هذا التغير أو هذا التناسى سرًّا لا يجهله كل الجهل ، وإن كان لا يدركه كل الإدراك .

هذا السر بين اثنين لا ثالث لهما هما امرأة عمه وعمه نفسه . .

وهو لا يستطيع أن يلقى التبعة على أى منهما دون أن يشرك الآخر فيه بنصيب !

وشمت عفراء ما جاءت له عمتها هند فتنفست ونشطت ... ثم ما لبثت أن همدت واغتمت إذ لم تحس فى جو المقابلة علامة تبشر بالخير أو تمد بالأمل ولو إلى حين .

جلس عقال إلى زوجته هند بعد انصراف أخته من لدنه ؛ فقال لها :

يا هند ! إن أختى جاءت إلىّ تسألنى أن أزوج عروة من عفراء . . . فما ترين ؟

قالت هند : أوَتسألنى رأيى يا رجل ؟ الأمر أوضح من أن يُسأل فيه !

إن عروة كما تعلم معدام .. وإنه ليس كفؤاً لابنتنا عفراء ... أوَفى ذلك من شك ؟

وسكت الرجل لحظة ثم قال لزوجته : أوَترتضينه إذا وجد المال ؟

قالت هند: وكيف يجده ؟ إن المال لا ينزل على الناس من السماء . . . على أنه لا يعجبنى ولا أستريح له زوجاً لابنتى . . . إنه شاعر . . . والشعراء يتبعهم الغاوون !

قال عقال : أتعنين يا هند أنه قال الشعر فى عفراء وشهر بها !

وأجابت هند : أجل يا عقال: إنه شهر بابنتنا فى شعره ،

وقد عرف أمرهما كل سكان الحى وإن كانوا جميعهم أهلا لنا أو شبه أهل !

على أن التشهير بالشعر ليس هو كل شىء . . . وإنما الذى يعنينى أنه معدم ، وأننى لا أستريح إليه .

* * *

لم يزد الرجل على ما سمعه من زوجه سوى أن انصرف من مجلسه وقد قدر نهاية كل من عروة وعفراء .

أما عروة فقد كان والحالة هذه فريسة للأحزان والقلق والهموم .

لقد فهم من كلام عمه أن المال الذى يفقده هو الصخرة التى تتحطم فوقها آماله ؛ فماذا هو صانع للحصول عليه ؟

إن عمته لا تستطيع مساعدته إلا بما تملك . . . وهى لا تملك إلا استعطاف أخيها والرثاء لهذا الموقف المؤلم .

وإن صاحبيه العامريين ليعرضان عليه مساعدتهما ولكنه يأبى ويشكر فما يريد أن يكون كلا على قوم لا تربطه بهم غير صلة الصداقة والجوار .

بقى أن يسعى هو بنفسه وأن يكد ويناضل حتى يحصل على مال يقوم به مهر كبير من النياق كما قدر لو طلب منه مهر لعفراء . . !

وأنى له بهذا المال ؟ . . . بل كيف يستطيع السعى وهو ذاهل اللب مشتت الفكر ، ناحل الجسد فوق ما هو مجروح

الكرامة والقلب ؟

ليس لديه إلا غنيماته ... ولكنها مجتمعة لا تقوم بثمن ناقة واحدة ؛ فما السبيل ؟

هكذا كان عروة فريسة للحيرة والعدم والحرمان .

* * *

فى تلك الأثناء أرسلت عفراء إلى عروة من أخبره أن يتقدم إلى عمه بنفسه ، لأن رجلا موسراً من ذوى قرابته يتقدم إلى أبيها ويطلب يدها ويلح فى طلبه ويبذل فى المهر والعطاء !

هشّ عروة وبشّ وأحس ببارقة من الأمل، وأسعده أن تنبه عفراء إلى هذا الخطر الداهم ؛ فاندفع إلى عمه بقوة لا يدريها وجرأة ما كان يتوقعها وقال له :

يا عمّ ... قد عرفت حقى وقرابتى ، وإنى ولد أخيك وربيت فى حجرك .

وقد بلغنى أن رجلا تقدم ليخطب عفراء ، فإن أسعفته بطلبته قتلتنى وسفكت دمى فأنشدك الله ورحمى وحقى !

فرق عمه له وقال : يا ابن أخى : أنت معدم وحالنا قريبة من حالك ! ولست مخرجها إلى سواك ... وأمها قد أبت أن تزوجها إلا بمهر غال فهلمّ .. !

وشعر عروة فى هذا الكلام بسهم ينفذ إلى أحشائه فتخاذلت قواه وخانته رجولته وبكى واستعبر ولكنه لم يغادر الدار حتى دخل علىّ امرأة عمه ورجلاه تميدان من تحته

فقال لها : يا أماه . . ! إن كنت تحبين عفراء ابنتك فلا ترديني خائباً . . . وإن حياتي وحياتها . . فقاطعته امرأة عمه وقالت : قل حياتك وحدك !!

وإن حياتي لفي يديك ، وما أظنك تبخلين على مخلوق مثلي تربى في دارك أن تسلبيه الحياة !!

وتأثرت امرأة عمه ورثت لحاله — كامرأة — فقالت له : اقعد يا عروة !! ثم أردفت : يا بني : إن عفراء وأنت تعرفها محط أنظار الرجال وأطماعهم ، ففيها كل ما تتمناه النفوس . . وأنا لا أبخل عليك بها .

فإن كانت هي حياتك كما تقول — وأظنك صادقاً — فإلىّ بمهرماثة ناقة ، وإن كان عمك ينقصها إلى ثمانين . . على أن تقدم نصف المهر بادئ بدء .

وهأنذا أعلنت وأفصحت وليس لك علىّ بعد هذا من سبيل !

* * *

أحس عروة في هذه اللهجة الجادة صدق القول ونية العزم فيها ، فتماسك وتصبر ، وأعلن قبوله لما عرضته عليه هند . . ثم انصرف وهو لا يدري : أيمشي على رأسه أم تحمله قدماه ؟

المال . . . المال وحده هو مفتاح أمله وطريق سعادته التي يرجوها بجانب عفراء . . وأحس أن البكاء والأنين والشكوى والتخاذل . . كل أولئك أمور لا تليق برجل مثله يتمنى الفوز

بمن يحبه ، وأحس أن لديه باباً للفرج عليه أن يلجه وإن كان ولوجه صعباً على مثله عسيراً .

وخطر له حينئذ خاطر استراح له فعزم على تنفيذه .

ذلك أن له قريباً يسكن الري من بلاد الشام ، وأن ذلك القريب الذى لم يره من قبل فى سعة من العيش وبسطة من الرزق ، فما عليه لو يجرب حظه عنده ويرحل إليه فيستقطعه من ماله ما يطلب منه من مهر ؟ وخطر له إن هو قص على قريبه قصته فما هو منصرف من لدنه إلا ببغيته ، فقد عرف قريبه هذا بالمروءة والشهامة وأريحية الرجال . .

وأراد أن يتحقق من نوايا عمه وزوجته هند قبل الرحيل ، وأن يأخذ عليهما عهداً بانتظاره حتى يعود ففعل .

دخل عليهما يوماً فعرض عليهما ما انتوى فاستحسنا ما يصنع وصوبا ما رأى وعاهداه ألا يحدثا حدثاً بعفراء حتى يعود !

وصحت نيته على الرحيل فى الصباح الباكر . . وعز عليه أن يرحل دون أن يحظى من عفراء بنظرة يقتات منها فى رحيله وبكلمة تشد عزمه وتقوى ظهره وتلهمه الصبر والجلد والكفاح ؛ فقال لعمه :

أسافر ولا أرى ابنة عمى ؟

فصاح عمه بزوجه هند : يا هند ؛ عروة يرحل ولا يرى ابنة عمه ؟

ورأت هند ما ينبغى فى مثل هذا الموقف فجاملت على كره

وصاحت متثاقلة ! اخرجي يا عفراء إلى ابن عمك قبل الرحيل !

وخرجت عفراء فى ذعر وقلق وسألت : أى رحيل تعنى يا عروة ؟

قال عروة : إلى الشام ! قالت عفراء : ومتى العودة ؟ قال عروة : حيث تريدين أن أعود !

واكفهر وجه عفراء واضطرب صدرها وانعقد لسانها وأطرقت فى ذهول .

ورآها عروة واجمة حزينة فتخاذل وتراخى ثم انفجر صدره بنشيج مكتوم .

وأقبلت أم عفراء عليهما ومعها بعض جوارى الحى اللواتى جئن لوداع عروة قبل الرحيل وقد عمّ خبره الحى وانتشر فى نواحيه .

وما إن رأتهما الجوارى حتى تحامل كل من عروة وعفراء على نفسه وتماسك وللدموع فى أجفانهما حرقة ولهيب . ولقد ود عروة أن يقضى الليل كله بجانب عفراء ليفضى إليها بذات نفسه . . ولكن ساعة الرحيل قد آذنت فنظر إليها عروة وأنشد :

أيمم وجهى والحياة مريرة
علىّ إلى خل من الأهل صاحب
لأجلك يا عفراء أقطع فدفداً
من الحزن علّى أن تكونى بجانبى

فأجابته عفراء :

تغيب وتأتى يا ابن عمي مصاحباً
لك الأمنُ فى الترحال بين السباسب

وما ألفت نفسى سواك وإنـــنى
على القرب أو فى البعد نجواك صاحبي

وانصرف عروة مع مطلع الفجر فشدّ على راحلته ومعه صاحباه العامريان .

زواج عَفراء من السريّ . . . ! !

أشرقت الشمس على عروة وهو بين النجاد والأغوار فى طريقه إلى الشام، وقد رافقه صاحباه العامريان ليؤنساه فى طريقه القفر وليرعياه وقد ساءت حاله وذهل لبه واضطرب عقله فما كان يجيبهما إن حدثاه ، وما كان يعى ما يقولان سوى أن ينطق باسم عفراء ما بين الحين والحين ، وسوى أن ينشد مخاطباً صديقيه :

خليلى من عليــا هلال بن عامر
بصنعاء عوجا اليــوم وانتظرانى
ولا تزهدا فى الأجر عندى وأجمــلا
فإنــكما بى اليــوم مبتليــان

لقد كان العامريان صاحبين مخلصين لعروة ، وطالما قدما له أنواعاً شتّى من المساعدات قبل بعضها واعتذر عن بعضها شاكراً .

إنه لا يريد أن يكون كلاًّ على صاحبيه وهما ليسا من أهله أو عشيرته .

لقد عرضا عليه أن يقدما إليه ثمانين ناقة مهراً لعفراء فتأبى وشكر . . . ولما ضاقت بهما الحيل لم يجدا من المعونة ما يقدمانه سوى أن يصحباه فى طريقه إلى الشام وقد ساءت

حاله . . وتلك مكرمة الأصدقاء ، وشيمة الأوفياء .

لقد كان عروة يحس بالوحدة حقاً ، وكان كل ما يتمناه أن يصل إلى قريبه فى الرى فلعله واجد لديه ما يحقق من أمله أو يصلح من شأنه .

وما زال عروة فى رحيله الأيام والليالى لقى فيها من الكرب ما لاقى حتى وصل إلى الري ففارقه صاحباه العامريان إلى شأن من شئونهما فى إحدى قرى الشام على تخوم الرى وقد اتخذا موعداً على مشارف البادية يلتقيان فيه بعروة حين العودة إلى حيه العزيز .

* * *

لما دخل عروة الريِ بدأ يسأل عن قريبه وينسبه لمن يسأله حتى وجده ، فرحب به قريبه وأنزله فى داره منزل القادم إلى أهله وعشيرته وذويه .

كان قريب عروة رجلا تقدمت به السن ، ولم يكن يعرف عرْوة ، بل لم يكن قد رآه من قبل وإن كان قد سمع عنه أنه شاعر من شعراء الغرام .

كذلك لم يكن عروة قد رأى قريبه من قبل ، وإن كان قد سمع عنه أخباراً من هنا وهناك .

وكان الرجل على قدر من اليسار ، فهو يملك عدداً كبيراً من النياق ، وكانت له بجانب هذا ضيعة كبيرة على مشارف الشام تغل له الشعير والتمر والزيتون .

استقبل الرجل عروة فى داره استقبالا كريماً ، ولقى عروة من أبناء قريبه حفاوة طيبة مسحت من نفسه بعض ما علق بها من الأكدار .

سأل الرجل عروة بعد أن مكنه من الإقامة فى داره :

أعروة بن حزام أنت ؟

قال عروة : أجل يا عمى . . . وعمى عقال من بنى عذرة !

قال الرجل : وجدّك « مهاصر » شيخ القبيلة . .

وأجاب عروة : أجل يا عمى .

قال قريبه : وإنك لشاعر . . ! وأطرق عروة ولم يجب . . .

وأضاف قريبه : لقد حملت إلينا القوافل القادمة من البادية بعضاً من شعرك حفظه الناس هنا ورددوه !! أوَلست القائل :

أعلل فيك النفس ، والنفس غضة
وأعذر فيك القلب ، والقلب حائر
وما لى يا عفراء عنك مسالك
إلى العيش لو خانت حظوظى المقادر

وأطرق عروة وقريبه ينشد من شعره . . . واستطرد الرجل فقال : أوَلست القائل :

فياليت كل اثنين بينهما هـوى
من الناس والأنعـام يلتقيان
فيقضى حبيب من حبيب لبـانة
ويرعاهما ربى فـلا يريان

وأضاف قريبه : وماذا قلت يا عروة فى قدومك إلينا ؟

فأنشد عروة :

أيمم وجهي والحياة مريرة
على إلى خيل من الأهل صاحب
لأجلك يا عفراء أقطع فدفداً
من الأرض على أن تكونى بجانبى

* * *

اطمأن الرجل بعد هذه المقارضة الشعرية إلى أن ضيفه هو عروة بن حزام حقاً فعمل على راحته ومنحه كثيراً من الإعزاز والإيثار .

قال الرجل يوماً لعروة يا ابن أخى ! أتعود إلى حيك فى البادية بعد أن استقر مقامك بيننا ؟

قال عروة : أجل يا عمى !

قال قريبه : لم رحيلك إلى البادية والعيش هنا موفور والمقام لك ميسور ؟ وإن لى لتجارة رائجة بين الشام وبادية الحجاز وفيما بين النهرين . . . فهلا أقمت عندنا بين أهلك وذويك ؟ !

وإنك ــ لعمرى ــ لواجد بيننا حبيبة أخرى تنسيك ما حزبك من الهموم والأحزان !

أنا لا أريد أن أشق عليك يا ابن أخى ! إنما أريد أن أخفف عنك بعض ما يعتريك من الضيق ، وأن أيسر لك

جانباً من شئون الحياة .

فإن كان كلامى هذا واقعاً من نفسك موقع القبول فافعل — يرحمك الله — !

* * *

اضطرب عروة وتفزع حين سمع كلام قريبه فقال : حنانك يا عمى . . ! فما جئتك لمزاولة التجارة واصطحاب الإبل فى الأسفار .

إنما جئتك فى أمر إن قضيته لى وهبت لى الحياة . . . وإلا فإنى والله لا محالة هالك وأنشد :

على كبدى من حب عفــراء قرحة
وعيناى من وجدى بها تــكفان

كأن قطــاة علقت بجناحهــا
على كبــدى من شــدة الخفقان

وما إن أنشد عروة هذين البيتين حتّى صاح قريبه : لعمرى إنك لمحب ! ! ومن تكون عفراء هذه ؟

قال عروة : هى ابنة عمى عقال بن مهاصر ، وقد علقتّها طفلا ، وألفتّها غلاماً ، وصار حبها فى قلبى كما ترى !!

قال قريبه : وما يمنعك منها ؟

قال عروة : ضيق اليد ، وسوء الجد !!

وإن أمها هند لتغلو فى مهرها وتسرف . . . وإن عمى « عقال » قد وعدنى ومنانى بها :

ومنيتنى عفراء حتى رجوتها   وشاع الذى منيت كل مكان

وإن فى الحى يا عمى بعض الموسرين قد تقدموا إلى عفراء مسرفين فى المهر ، مبالغين فى الألطاف والهدايا ، وأنا لست لهم بكفء . . ولا لهم شبيهاً !!

إن أمر عفراء يا عمى بيد أمها هند ، أما عمى عقال فهو مغلوب على أمره ، مقهور أمام سلطان زوجه وأنا بين عمى وزوجه حائر ملتاع .

قال قريبه : وما تريدنى فاعلا لك يا ابن أخى ؟

قال عروة : تعطينى ثمانين ناقة مهراً لعفراء . . !

قال قريبه : لا والله . . . بل مائة ناقة مهراً لعفراء . . !

* * *

فى تلك الأثناء بينما كان عروة عند قريبه بالشام هبط حى عفراء رجل موسر من أهل الشام تعود أن ينزل إلى البادية ليقيم فيها ما شاءت له الإقامة ، ليتعرف على أحوال البادية ويقف على طباع أهلها وعاداتهم ويتزود منهم صحة المنطق وقوة الفصاحة والبيان، شأنه فى ذلك شأن الموسرين من أهل الحضر الذين يقيمون فى البوادى بضعة أشهر من كل عام .

هبط الشامى هذا الحى فى بطانة كبيرة من الندماء والجوارى والغلمان ، وحوله العديد من الإبل والشياه والأفراس .

وضرب الرجل خيامه بظاهر الحى على مقربة من دار عفراء وراح يذبح الذبائح وينحر كل يوم فتغلى قدوره وتشب ناره

وتمتلئ خيامه بالأضياف من الحيّ والأحياء المجاورة له .

وعرف القوم هذا السريّ فمجّدوا كرمه وأعلوا قدره وألفوه جميعهم كبيرهم وصغيرهم حتى أصبحت خيامه مقصداً لهم فى غدوهم ورواحهم ولا سيما أمسياتهم التى كانوا يقضونها فى رحابه يطعمون من طعامه ، ويستدفئون بناره !

وتوثقت الثقة بين الرجل ورجال الحى ، فكانوا يزورونه ويزورهم حتى أصبح واحداً منهم .

وتسربت جواريه وغلمانه فى الحى فدخلوا كل دار وولجوا كل خيمة وتبادلوا فيما بينهم أسباب المعيشة وأدوات الطعام .

* * *

وذات صباح دخلت جارية من جوارى هذا السرى دار عفراء لتشترى بعضاً من الزبد واللبن . . فأعطتها عفراء ما أرادت دون أن تقبل منها ثمناً . . . لقد تأبت عفراء أن تتقاضى أجراً لشىء من الطعام !

وأعجبت الجارية بعفراء ، وانبهرت من جمالها الرائع ، وافتتنت بحديثها العذب وطبعها السمح الكريم !

فما إن وصلت بالزبد واللبن إلى خيام سيدها حتى أسرعت إليه وصاحت :

سيدى ؛ رأيت اليوم وجهاً كالقمر ، وقدًّا كغصن البان ، يمسك أعلاه بأسفله خصر هضيم نحيل ، يشكو نهدة الصدر ، وثقل العجز . . . !

وإنها لعلى خلق كالنسيم ، وطبع كهدوء الغدير ، وسماحة حلوة عذبة يشبع منها الجائع ويرتوى العطشان .

سمع مولاها هذا الوصف فصاح : ويلك يا نجف !! ومن تكون تلك ؟

قالت الجارية : هى عفراء يا سيدى ! عفراء التى سمعنا عنها منذ أن هبطنا هذا الحى .

وهى ابنة عقال بن مهاصر ذلك الشيخ الفارع ذى العمامة العالية واللحية السوداء الذى كان يجالسك بالأمس . . !

وتبسم مولاها وهز رأسه علامة على الإعجاب وصاح فى الجارية : القهوة يا نجف !!

وانصرفت الجارية ، وانصرف الرجل إلى نفسه وقد تاقت وتلهفت إلى رؤية التى وصفتها له الجارية فطارت بلبه .

وبدأ السرى يجوس خلال الحى كعادته فى كل ضحوة ، فإذا هو يرى عفراء بباب دارها تكلم جارة لها فى شأن من شئون النساء ، وإذا هى التى وصفتها له الجارية بل تزيد .

ولم يجهد السرى نفسه فى هل تكون تلك عفراء أو لا تكون ؟

فهو يعرف دار أبيها وقد شرب فيها القهوة مراراً . . ثم انصرف وقد اعتزم فى نفسه أمراً . . !

ولم يطل التفكير بالرجل فى أمر عفراء !

لقد كان عند أبيها عصر ذلك اليوم الذى شهدها فى ضحوته . . وبعد أن شرب القهوة اعتدل فى جلسته وفاتح أباها :

يا شيخ العرب . . . جئتك فى حاجة فإما قبولا حسناً ، وإما رداً جميلا !

قال عقال : ما بنا رد لحاجة قدرنا عليها ! قل يرحمك الله !

قال السرى : تزوجنى بابنتك عفراء . . !

قال عقال : لعمرى إنه لشرف يا ابن العم ! لولا أنها مخطوبة لابن عم يعدلها عندى . . وهما على ألفة منذ الصغر ، وما لها إلى غيره من سبيل !

قال السرى : وأرغبك فى المهر كما تريد !

قال أبوها : لا حاجة لى بذلك ..

فهب الرجل السرى وشكر ، وقد تخلص أبوها واعتذر .

* * *

لم يفقد السرى أمله فى عفراء ، فقد عرف فيما عرف من طول إقامته فى الحى شيئاً من قصة عروة وعفراء ، وعرف أيضاً أن أمها هند هى التى تملك مقاليد الأمور فى شأن ابنتها . . وأنها كذلك ذات شخصية قوية تملك من الأمر ما لا يملك زوجها عقال .

عرف كل هذا فأرسل جاريته « نجف » إلى أم عفراء تطلعها على رغبته فى ابنتها ، وعلى ما جرى بينه وبين أبيها فى شأنها ، وأنه باذل فيها من المهر والعطايا ما تشاء !!

ودامت المراسلات الخفية بين السرى من ناحية ، وبين أم عفراء من ناحية أخرى انتهت بقبولها السرى زوجاً لعفراء

وأعلنت له هذا القبول ووعدته بالوفاء به .

جرى كل هذا على غير علم من زوجها . . . ثم أرادت أن تفضى له ببعض حقه فى ابنته فاعتزمت إخباره بما صنعت !

نادته يوماً فقعد بجانبها وقصت عليه قصة السرى ثم قالت : يا عقال : أى خير فى عروة ابن أخيك حتى تحبس عليه ابنتى وقد جاءها الثراء يطرق عليها بابها ؟

قال عقال : الوفاء بالعهد يا هند !! وقد وعدتُه ووعدته أنت بعفراء ، وألا نحدث حدثاً بشأنها حتى يعود إلينا بما طلبته من المهر .

إن عروة قد رحل إلى الشام لإحضار مهر عفراء . . . رحل وهو منهوك القوى مشرد البال وقد شهدته نفسك ليلة رحيله !!

على أنك تعلمين يا هند ما بين عروة وعفراء من الألفة والمودة . . . فحرام عليك يا امرأة . . .

حرام عليك أن تقضى فى شأن ابنتك بأمر تزهق فيه روح عروة . . وقد تقاسى عفراء أمرّ من هذا وأنت لا تدرين !!

واستمر عقال فى حماسه وصاح فى عزم وإيمان : لا تقولى يا هند : هذا غنى وذاك معدم !! فالغنى والفقر بيد الله وحده ، فقد يصبح الفتى فقيراً ، والمعدم غنياً . . . لا يا امرأتى — ورعاك الله — !!

وردت هند على كلام زوجها وقالت : والله يا رجل

ما تدرى : أعروة حىّ أم ميت ؟

وهل ينقلب إليك بخير أم بشر فتكون قد حرمت ابنتك خيراً حاضراً ورزقاً مواتياً !

ولم تزل به فى حديثها ترغبه فى هذا ، وترغبه عن ذاك حتى لان واستسلم وقال فى لهجة راضية :

إن عاد إلىّ السرىّ خاطباً أجبته !!

وانتصرت هند فى المعركة فنشطت وابتهجت وأرسلت إلى السرى : أن عدْ إلى أبيها خاطباً . . !

وعاد السرى إلى عقال فخطب عفراء من جديد وقبل عقال الخطبة . . .

وفى اليوم التالى دعا السرى رجال الحى ووجوهه ، فذبح ونحر ، وأطعم ووهب ، وقام وسط الحفل فأعلن خطبته لعفراء . . . وأعلن أبوها القبول .

* * *

عَفراء تَرحل وعروة يَعود ... !!

تطاير خبر الزواج إلى هند فأشرقت وابتهجت ، بينما انتابت عفراء نوبة من الوجوم والحزن والبكاء !

وأمسكت هند بيد عفراء فى رفق وحنان وقالت : ما بلك يا عفراء ؟ ما بلك يا ابنتى ؟

أتحزنين لخير يأتيك ؟ ووالله يا ابنتى ما ندرى : أعروة حى أم ميت ؟

فإن كان ميتاً فما فى البكاء حيلة ولا فى الحزن عزاء ! وإن كان حيًّا فهو عند قريبه فى الشام يعيش فى خيره وينهل من موارده .

وإنه ــ وحقك ــ لواجد هناك عفراء أخرى يبنى بها . . . فلا تثريب عليك ولا علينا .

فكفى يا ابنتى عن التفكير وإثارة الأحزان يرحمك الله !!

وهكذا وقعت المأساة ! وتزوج السرى بعفراء . . !

وساق السرى إلى عفراء المهر الغالى وبالغ فى الألطاف والهدايا !

وفى المساء حُولت عفراء إلى زوجها فى خيامه بظاهر الحى . . فدخلتها كارهة جازعة وهى تنشد :

يا عرو إن القوم قد نقضوا   عهد الإله وحاولوا الغــدرا

يا عرو لا تبق على ثقـة في الناس أو ترجو بهم أمرا
ساموا صباى كأنني سلع تبتاع فى الأسواق أو تشرى
لهفى عليك وأنت فى محن تبغى هواى وترتجى المهرا
لو يا ابن عمى كان لى حيل لشققت بعد غيابك الصدرا

* * *

ليس إلا الله وحده الذى يدرى ما بقلب عفراء .

إنها الآن فى خيام زوجها السرى . . . وسوف يطلع عليها بعد قليل وجه غريب ليس لها به ألفة ، وما بها من الميل ما يكون عادة بين العروس وعروسه ليلة الزفاف .

إنها لتشعر بالقهر والغلبة . . . قهر المال وغلبة الثراء وسيطرة التقاليد المألوفة التى يفرضها الوالدان على فتاتهما حين الزواج .

لقد انطفأ أمامها فى لحظة واحدة آمال أعوام مضت ، وأحلام جميلة طالما ندّت نفسها ونضرت حياتها بالرجاء المحبوب .

لقد رحل عروة إلى بلاد بعيدة لإحضار ثمانين ناقة مهراً لها . . .

رحل من أجلها هى . . . من أجل عفراء التى أمست زوجاً للمال . . . وفريسة للجاه الذى أسرها . . ! لقد كانت خواطرها قاتمة . . . وكان قلبها كسيراً جريحاً !

إنها لا تحس فى عرسها فرحاً أو ما يشبه الفرح . . إنما تحس نكبة قاسية قصمت ظهرها وقوضت آمالها .

وفى الهزيع الأخير من الليل دخل السرى بعفراء ، وأقام بعد دخوله بها ثلاث ليال لم يغادر فيها خيامه ، وفى فجر اليوم الرابع رحل السرى بموكبه إلى الشام على غرة من أهل الحى . . . وما تحرك الهودج بعفراء حتى صاحت :

يا عرو إن القوم قد نقضوا عهد الإله وحاولوا الغدرا

وبعُد الموكب عن الحى وانساب فى المسالك إلى الخلاء البعيد .

* * *

لم يكن فى الحى كله ليلة الزفاف سوى شخصين مبتهجين . فأما أولهما فهو السرى وقد فاز بأمنيته . . وأما الثانى فهو هند أم عفراء وقد ضمنت لابنتها زوجاً غنياً ومالا كثيراً .

وأما الحى كله رجاله ونساؤه ، فتيانه وفتياته ، فقد كان واجماً حزيناً . . . لقد أقفر الحى من عفراء وقد كانت بهجته ، وخلت الدور منها وقد كانت ريحانتها ، واختطفها منهم رجل غريب عنهم ففقدوا بفقدها وجهها المشرق ، وحديثها العذب وطبعها السمح الكريم الذى لا يعوضهم عنه غيرها من النساء . على أن كثيراً ممن حزنوا لرحيلها لم يكن حزنهم إلا عطفاً على عروة المسافر البعيد وقد علموا بأمره فيها ، ورثاء لعفراء الراحلة وقد علموا بأمرها فيه .

وتنبه أبو عفراء للصدمة بعد رحيل ابنته وأحس وقعها على عروة إن حضر إلى الحي ، فعمد إلى حيلة ظن أنها تعفيه من

جريرته وتوهم أنها عزاء لعروة فيما يقاسيه .

يقول الرواة : لقد عمد أبو عفراء إلى قبر عتيق فسواه ولطخه بالطين من كل جانب ، واتفق مع أهل الحى أن يخبروه بموتها حين حضوره . . وأن هذا القبر قبرها ، ورضى القوم بذلك حرصاً على حياة هذا المسكين؛ فخبر موتها على نفسه أخف إيلاماً من خبر زواجها من رجل غريب رحل بها إلى بلاد بينه وبينها أمد بعيد . . !

* * *

رحل عروة من لدن قريبه فى فجر اليوم الذى رحلت فيه عفراء . .

هو عائد بمهر عفراء إلى حيها الحبيب . . وهى راحلة بقلب حزين إلى متسقرها البعيد !

رحل عروة وقد أكرمه قريبه وطيب خاطره . . لقد أطعمه وكساه ووهب له مائة من النياق . . وها هو ذا عروة على ناقته البيضاء ، وخلفه النياق يحدوها حاديها ، وخلفها سار صاحباه العامريان .

سار عروة منتعش النفس ، نابض القلب زاخراً بالحياة والأمل .

ولم لا ؟ وهذه الإبل جميعها مهر عفراء بل تزيد . . . إنه حقاً لمبتهج ، وإنه حقاً لفرحان ، وإن بالإبل نفسها من النشاط والقوة وحركة السير السريعة ما به من النشاط والفرح

والابتهاج . وكأنما الإبل قد أحست ما بقلب عروة من فرح وأمل فأغذّت فى المسير ، واستجابت لحداء الحادى فى خفة وطرب ، إيذاناً بقرب المنى لهذا العاشق الولهان ! !

ونظر عروة إلى النياق فاهتز وانتشى ، وإن عينيه لا تتحولان عنها لحظة من اللحظات . . وكأنه يخشى أن تنشق الأرض فتبتلعها أو يذهب بها الحادى إلى مكان بعيد .

وطرب عروة لغناء الحادى ، ولكن ما بنفسه من طرب كان أعذب وأحلى . . . طرب لحداء الحادى فاستحثه إلى أن بلغ منه الطرب مبلغه فأشار إلى الحادى « أن اسكت » وراح هو يغنى :

أيمم وجهى والحياة مريرة
على إلى خل من الأهل صاحب
لأجلك يا عفراء أقطع فدفدا
من الأرض علّى أن تكونى بجانبى
جزى الله خلى خير ما صنعت بنا
أياديه ، أهدتنى وصال الحبائب

وتذكر ما أنشدته عفراء ليلة وداعه فطرب وراح يغنى :

تغيب وتأتى يا ابن عمى مصاحبا
لك الأمن فى الترحال بين السباسب
وما ألفت نفسى سواك وإننى
على القرب أو فى البعد نجواك صاحبى

وهكذا واصلت القافلة سيرها على هذا النحو من الإشراق والتطلع حتى بقي للوصول إلى الحي مسيرة ليلة واحدة أو بعض ليلة !

* * *

سكنت القافلة فى منزل به ظل وماء لتستريح من وعث السفر ومشاقه . . . ونزل عروة من على ناقته فأبركها وقعد بجانب ركبتيها وقد أسند ذراعه على مؤخر عنقها وإذا سنة من النوم تفجؤه فيرى فيها كما يرى النائم فى أحلامه . .

رأى أنه فى المرعى . . . ورأى الشاة رفيعة تتسرب إلى بعض المسارب البعيدة ، ورأى ذئباً أعمل فيها أنيابه ، فجرى خلفها والكبش رفيع يجرى وراءه . . . وبعد لأى وجد الشاة تتشحط فى دمها فجرها من المسرب والدماء تنزف منها بينما الكبش رفيع يشمها من رقبتها فتلطخ أنفه وفمه بالدماء . . . !

وصحا عروة متفزعاً من هذا الحلم الكئيب وهو يصيح : يا لله . . . . يا لله . . . هذا حلمى القديم . . حلمى فى المرعى . . . حلمى الذى قصصته على عفراء فارتاعت منه !

ترى ما يكون يا رب ؟ !

وسمع صاحباه العامريان صياحه فسألاه ما به ؟ فقص عليهما ما رأى فقالا : أضغاث أحلام !!

وتشاء الأقدار — وعفراء فى هودجها الذى لم يصل إلى الشام بعد — أن يعتريها القلق ، فتغفو عيناها بعض اللحظات فترى

فى منامها نفس هذا الحلم ، وتشهد بعينيها الشاة « رفيعة » تتشحط فى دمها ، والكبش « رفيع » وقد تخضب أنفه وفمه من تلك الدماء .

وصحت عفراء من نومها مذعورة منزعجة وهى تهتف : ربّاه . . . رباه . . هذا هو حلم المرعى .. هذا هو الحلم عينه الذى قصه علىّ عروة فى حظيرة الأغنام !!

وتروح فى شبه غيبوبة ، وتسكب عيناها من الدموع ما شاءت أن تسكب . . . وحولها جاريتان لها تهدئان من روعها وما هى واجدة إلى الهدوء من سبيل !

عفراء فى هودجها تنتحب لأن حلمها قد تحقق . . . فلا حاجة بها إلى الشك والتأويل !

وعروة فى قافلته عائداً إلى حيه الحبيب . . . . ولكنه قلق مرتاع لا سبيل له إلى اليقين . . . وإنما هو فى جحيم من الشك والتأويل فيصيح . . . تُرى ما يكون يا رب !!

* * *

وصل عروة إلى الحى فى نفس اليوم الذى وصلت فيه عفراء إلى دار زوجها السرى بالشام . . واستقرت عفراء فى دارها الجديدة على كره منها . . . بينما عروة يطرق باب عمه وخلفه ثمانون من النياق !

وما إن رآه عمه حتى صاح به : عظم الله أجرك فى عفراء يا ابن أخى . واستعبر باكياً . . !

لم يدر عروة ما قال عمه . . . وما سمعت أذناه حرفاً مما قال . . . وكل ما اعتراه أن حملقت عيناه وثبتتا فى الرجل . . . وانفتح فوه وامتد فى اتساعه حتى ما عاد يطبقه وظن أن بعمه مساً من الجن أو طائفاً من الجنون .

وأسرعت رجلاه على غير وعى يطوف بأرجاء الدار كالمخبول، يبحث عن عفراء فى كل ناحية فيها ، حتى كاد أن يشق الجدران علها فى جوفها أو ينبش الأرض لعلها مختبئة فى جوف الثرى !

ولمحته زوج عمه فى تلك الحال فأدركت ما به ، وتقدمت إليه مجهشة بالبكاء وقد أمسكت بيده قائلة : على رسلك يا عروة . . . تصبر يا بنى !

لقد ماتت عفراء فى مرض انتابها بعد رحيلك . . وكم وددنا لو كان ذلك ممكناً أن نبقى على جثمانها الحبيب حتى تعود !!

تجلد يا عروة وتصبر وما صبرك إلا بالله !

رنت هذه النغمات الحزينة فى نفس عروة فبدأ يتيقن صدق النعى ، وما إن تيقن حتى سقط على الأرض فى إغماءة طويلة لم ينتبه منها إلا على عويل النساء حوله وبكاء الصبيان .

* * *

هب عروة من غشيته فراح يجرى كالمجنون فى دروب الحى يغمغم بكلمات مختلطة ، ويأتى بحركات مختلة لا يعيها ولا يفطن إليها . وعزّ علي عمه حاله فجرى إليه وأمسك به وقاده إلى قبر

عفراء وأراه إياه؛وما إن رآه حتى انكفأ عليه وراح فى غيبوبة كالموت بل هى أشد .

ومرت به نسوة من الحى فبكين من أجله ، وأنهضنه من رقدته ومسحن التراب عن وجهه ثم تركنه بجانب القبر لا يعى لمحدث ، ولا يفقه من أمر الدنيا شيئاً .

لزم عروة قبر عفراء ليلا ونهاراً لا يحيد عنه . . . يبكى آناً . . ويضحك آناً آخر ، ويمرغ وجهه فى التراب . ويشق ملابسه ، ويتسمع إلى داخل القبر بأذنيه ، وأحياناً يتحسسه بأنفه فيشمه . ويطوقه بذراعيه ويلثمه وينبشه بأظافره وقد طالت ويمسحه بشعر رأسه وقد تشعث وتغبر .

ولم يتركه عمه بجانب قبر عفراء وحيداً . . وإنما كان يحمل إليه الطعام فلا يذوقه ، ويقدم إليه اللبن فيأخذ منه ما يبل حلقه ويندى صداه .

وتوفر الطعام حول القبر فحطت عليه الطيور والغربان ، واجتمعت عليه الكلاب من كل فج ، وعاش عروة بين هؤلاء وهؤلاء كأنه واحد منها ليس له من الحياة غير الجو والفضاء . . . الفضاء الذى يحتوى قبر عفراء .

وتجمع حوله الصبيان ينظرون إليه ، فبعضهم يبكى لبكائه ، وبعضهم يقدم له مما معه من خبز وتمر . . وبعضهم يحدثه عن عفراء فيقفز ثم ينكفىء على قبرها فى نشيج مكتوم !

وتتسابق إليه نساء الحي وجواريه ، هذه تحمل إليه اللبن ،

وتلك تحمل إليه العسل الممزوج بالماء فيعرض عن هذه وعن تلك . . . فينصرفن عنه جازعات مولولات . . !

ورحمه الله ولطف به ، فسكن من ثائرته ، وألهمه بعضاً من الوعى والتصبر ، فثاب إليه رشده ، وتيقظ لحاله ، فلزم قبرها لا يبرحه ، فكان يلصق صدره به وينشد :

هنا قبر لأحلامى وحبى
هنا عفرا . . . هنا خفقات قلبى
سأزفر زفرتى فى كل واد
وأسكب أدمعى فى كل درب
أرى الدنيا ظلاماً فى ظلام
وكل الأرض جدبا فوق جدب
أعفراء الحبيبة حديثنى
وإلا فاسمعى منى وحسبى
جرى حكم القضاء ولست أدرى
أذنبك ما أرى أم ذاك ذنبى
سأقطع بعدك الدنيا شريداً
إلى لقياك يوماً عند ربى
وكيف أعيش بعدك يا حبيبى
وما للعيش معنى بعد حبى

وعطفت عليه جارية من جوارى الحى فأقسمت لتخبرنه بالحقيقة . . فذهبت إليه ذات مساء وهو لاصق بالقبر فنبهته

فتنبه . . . وأخبرته خبر زواجها بالشام .

سمع عروة هذا الخبر فصاح صيحة كادت أن تزهق روحه . . . ثم انفجر صارخاً :

بالشام تزوجت ؟؟

وشدّ على راحلته فى فجر هذا اليوم ، وانساب بها وحده فى وحشة الفيافى ، وفى مسالك الصحراء بين التلال والرمال .

إلى الشام ! !

انساب عروة فى الفجر بين التلال والوديان ، فما أشرقت عليه الشمس حتى كان فى البيداء يضرب فى نواحيها بلا زاد أو ماء ، وإنما كان يتبلغ بما يجده فى طريقه من نبتة يلقاها فى رأس ربوة ، أو قطعة من الخبز سقطت من عابر سبيل .

ولولا أنه كان يعرج كلما عضه الجوع أو كاد يقتله الظمأ على قافلة تسير يستجدى منها طعامه وماءه لهلك فى الفيافى حزناً وجوعاً وعطشاً .

لقد سار متخبطاً فى طريقه لا يدرى ، هذا يرشده وذاك يعاونه وهو دامع العين مسلوب الفؤاد .

لقد طافت به الذكريات الموجعة فأنشد :

أناسية عفـــراء ذكرى بعـــد ما
تركت لهـــا ذكراً بكل مكان
وإنى لأهوى الحشر إذ قيـــل إننى
وعفراء يوم الحشر ملتقيـــان

وانحدرت به راحلته إلى واد عميق فسار فيه على غير هدى وإذا هو أمام معالم لم يألفها فى طريقه فجزع واضطرب وأبرك ناقته حيث وقفت ، ثم نزل عنها وقعد بجانبها وقتاً كاد يلفظ فيه أنفاسه ، وبينما هو فى ذهوله فإذا حداء من بعيد يطرق سمعه

فهبّ وشدّ على راحلته وسار حتى صعد على أرض مرتفعة منبسطة يمتد فيها الطرف ويمتد فلا يرى لآفاقها نهاية ولا لأطرافها حدوداً .

* * *

ظل عروة فى مسيره يحمله مرتفع ويحطه منخفض ، وتطويه فيافى جرداء ، وتغمره بيداء وبيداء حتى لمح عن بعد طيراً وشجراً ، فأغذّ السير إليه فإذا نسوة حول ماء يستسقين فنزل عن راحلته وتوجه إليهن قائلا :

وحيد ضل فى الدنيا غريبـا فهل يلقى بواديكم نصيبا

فأجابته إحداهن :

نعم ، يلقى بوادينا نصيبـا وينزل بيننا سهلا خصيبا

وقالت الأخرى : وإلى أين يا غريب ؟

فأنشد :

هوى ناقتى خلفى وقُدّامِىَ الهوى
وإنى وإياهـا لمختلفـان

فياليت كل اثنين بينهما هـوى
من النـاس والأنعـام يلتقيان

فيقضى حبيب من حبيب لبانة
ويرعاهما ربى فلا يربان

وصاحت إحداهما بالأخرى : هذا ــ لعمرى ــ عاشق ملتاع !

وما سمع عروة قولها حتى أنشد :

على كبدى من حب عفـــراء قرحة
وعينـــاى من وجــدى بها تــكفان

وانصرف عروة بناقته وقد شرب عندهن وأطعم . . وما سار أو كاد حتى تبعته جماعة من الغربان تحلق فوقه فى نعيق صارخ فأنشد :

ألا يا غرابى دمنة الدار بينـــا
أبالهجر من عفراء تنتحبان ؟
فإن كان حقًّا ما تقولان فاذهبـــا
بلحمى إلى وكريكمـــا فــكلانى
كُلانى أكلا لم يـــر الناس مثله
ولا تهضما جنـــبىّ وازدردانى

* * *

ضل عروة وحاله تلك فى الفيافى وأسلم نفسه للأقدار ..

وظل فى مجاهل من الأرض يوماً وليلة حتى كاد أن يهلك ، ولكن رحمة الله به كانت قريبة فعثر عليه قوم من عرب الشام يحملون عروساً إلى الشام . . . فأخذوا بيده وسار خلفهم ، وقد ركبت العروس فى هودج كبير خلفه النياق يحملن الجوارى وفيهن واحدة تُغنى :

شكونا إلى أحبابنا طول ليلنا   فقالوا لنا ، ماأقصر الليل عندنا
وذاك لأن النوم يغشى عيونهم   سريعاً ، ولا يغشى لناالنوم أعينا

فلو أنهم كانوا يلاقون مثل ما نلاقى ، لكانوا فى المضاجع مثلنا

وما سمع عروة هذا الغناء حتى صرخ صرخة مدوية سكن لها الركب ووقف وتبينوه فإذا هو ينشد :

أعفــراء هذى ؟ يا خليلى خبرا
بوجدى وما لاقيت منذ زمان
لقد تركت عفــراء قلبى كأنــه
جنــاح غــراب دائم الخفقان .

وما سمعت الجوارى اسم عفراء فى إنشاده حتى صاحت إحداهن : عفراء . . . ؟ تلك التى وصلت من البيداء منذ أسابيع . . وهذا ــ لعمرى ــ صاحبها !

وقالت الأخرى : وإنه لابن عمها . . وقد تحدث الناس فيهما منذ وصولها إلى الشام !

ولما وصل الركب إلى مسيرة يوم من الشام اتخذ طريقه إلى حى العروس ، وانحرف عروة فى طريق آخر إلى الرى فوصل إليه ليلا ونام براحلته على باب مسجد حتى طلع النهار .

* * *

وصل عروة إلى الرى بعد ما أنهكه السفر وأضنته المتاعب والأحزان .

إنه الآن لا يدرى ماذا يصنع ؟ ولا كيف يبحث عن زوج عفراء ؟

وإنه كذلك لا يعرف اسم الزوج . . . وليس له سابق صلة

بسكان هذا الحى . . . فما العمل ؟

لقد أبرك ناقته على باب المسجد ، وقبع بجانبها يدير بصره فى المارة من الناس ، وينظر إليهم نظرات ملهوفة بلهاء لا تعبر إلا عن الأسى والحيرة والاضطراب .

* * *

قضى عروة ليلته على باب المسجد دون أن يقف على خبر يهديه إلى دار السرى زوج عفراء .

لقد لفه الليل فى ظلامه الرهيب ، فما كان يسمع حوله همسة أو نأمة إلا نباح الكلاب وصياح الديكة فى الحين بعد الحين.

لم يغتمض له جفن ، ولم تهدأ له هاجعة حتى أذن الفجر فرأى ما يشبه الأشباح تتسلل فى ضوء الفجر الخافت إلى المسجد ، وسمع فى خفوت دعوات المصلين وهم يتهيأون للصلاة ، فهرع إلى داخل المسجد وصلى معهم ودعا الله أن يهبه من لدنه حلاوة الصبر ونعمة الإيمان .

وبينما هو كذلك وقد أقبل الضحى وإذا بصبية يلعبون ويمرحون قد اقتربوا منه ونظروا إليه فعرفوا أنه غريب عن الحى.. فصاح فيهم :

أمن سكان الحى أنتم أيها الصبية ؟

فأجاب أكبرهم : أجل يا عماه . . . فهل لك من مسألة ؟

قال عروة : هل سمعتم بعرس جديد أقيم فى حيكم هذا منذ شهور ؟

وأجاب الصبية فى صوت واحد : أجل يا عماه !! إنه عرس عفراء القادمة إلينا من بادية الحجاز ، وإن زوجها هو فلان ابن فلان من عدنان،لقد نعم الحى كله بالكساء والطعام والهدايا أيام العرس. . . . لأن زوجها على قدر من النعمة واليسار . . !

ونظر عروة إلى الصبية بوجه باسم وقال : هل لكم أيها الصبية أن تدلونى على دار بعلها ؟

وقاده الصبية إلى دار عفراء . . . ثم انصرفوا !!

وطاف عروة براحلته حول الدار حيناً من الزمن ، وفجأة أبصر رجلا يخرج من باب الدار فأقبل عليه عروة وحياه وانتسب إليه فى عدنان متخذاً لنفسه اسماً تخيره !!

رحب الرجل بعروة وأنزله بداره ضيفاً مكرماً . .!

كان ذلك الرجل هو زوج عفراء . . . !

عُروة فى دارِ عفراء . . . ! !

ومهما يكن عجيباً أن ينتحل عروة اسماً غير اسمه ، وأن ينزل ضيفاً فى دار رجل لم يعرفه من قبل . . . مهما يكن من العجب . . فإن عروة الآن فى دار عفراء وهى لا تعلم من أمر هذا الضيف إلا أنه رجل ينتسب إلى زوجها وقد حل بهم ضيفاً .

عروة الآن فى دار عفراء وليس بينه وبينها إلا الحوائط والأستار ! !

إنه الآن لمستريح وإن كان بين جنبيه جمرات من الوقد المشبوب ! !

إنه بجانبها ، وفى الدار التى تعيش فيها ، فحسبه أن يحس بوجودها ، ويسمع صوتها ويناجى خيالها ، ويأكل من طعامها الذى تهيئه بيدها .

حسبه هذا وذاك . . . فما فى طبيعة شاعر مثله محب أن يكون بها من النوازع النفسية ما يخرجها عن التهذيب والتعفف ! !

إنه ولهان بها . . . مجنون برؤيتها والتحدث إليها . . . فما يذوق من الطعام عندها إلا ما يمسك عليه رمقه . . . ولا يطمئن جنبه إلى مضجع على طول ليله وسهده !

عفراء بجانبه ولا يكلمها . . . أو يراها . . يا لحرقة قلبه . . ولهيب فؤاده !!

وعفراء بجانبه يحدثها رجل غيره ويضمها وإياه مكان واحد . . . !

يا للغيرة تأكل قلبه !! إنه حبيب وامق . . . فى ثوب ضيف مزيف !!

لم يهدأ لعروة بال ... ولم تسكن له جانحة ، ولم ترقأ له عبرة ، ولم تخمد له زفرة ، ولم يغتمض له جفن !!

هذا هو صوت عفراء عينه . . إنه ينساب فى نفسه الآن فلا ينديها وإنما يعتصرها عصراً .

وذاك دبيب قدميها ورنين خلاخلها غادية رائحة فى صحن الدار تنفذ إلى أعماقه فتدميها .

وهذا عطر ثيابها وطيب شعرها ينساب فى خياشيمه فيبتلعها ابتلاعاً ثم يمسكه فى جوفه خوف أن يتسرب منه إلى الهواء !!

إنه لا يراها . . . وهى لا تدرى شيئاً عن وجوده . . وإن صاحب الدار لمحتف به أيما احتفاء ؛ فهو ملازمه منذ الصباح حتى يخلى عنه فى المساء البعيد .

وكم جاهد عروة نفسه ، ونازل عواطفه فكتمها على حذر ، وراقبها فى الخفاء وهى تصطدم فى صدره وترتطم . . . فما ينبغى لمثله أن يدخل الدار ضيفاً عزيزاً ، ثم ينقلب أمام مضيفه محبًّا وامقاً . . !

* * *

ضاق عروة بالتصنع الذى ما عاد يحتمله وبدأ يفقد توازنه وتماسكه ، وظهر ذلك فى أرقه الدائم وتململه واضطرابه فى فراشه . .

خنقته عبراته فى ليلة طالت عليه واشتدت فانفجر باكياً فى خفوت وراح يدعو على عمه فى همس :

فيا عم يا ذا الغدر لا زلت مبتلى
حليفاً لهم لازم وهوان
غدرت ، وكان الغدر منك سجية
فألزمت قلبى دائم الخفقان
وأورثتنى غماً وكرباً وحسرة
وأورثت عينى دائم الهملان
فلا زلت ذا شوق إلى من هويته
وقلبك مقسوماً بكل مكان

وفى سكون الليل ورهبته أحست الجارية « نجف » بصوت خفيض فى مخدع عروة ... فأسرعت إلى باب المخدع وسلطت أذنيها على ثقب فيه .

وتنبه عروة إلى حركة فى الخارج فأمسك ! وكانت الجارية قد سمعت كلاماً لم تتبينه وإن أحست أنه كلام منغم على كل حال ، فما أصبح الصباح حتى قالت لمولاها وهي تصب

الماء على يديه للوضوء : ضيفنا هذا شاعر . . . !

وسمع مولاها ذلك فصاح : فضلا وكرامة . . . إنما يتنزل الشعراء حين يزورون أمثالنا . . . !

وانتهى الرجل من صلاته ودخل على عروة هاشاً باشاً وصاح : تبخل علينا بشعرك يا ابن العم ؟

وأدرك عروة واضطرب وقال : ما أنا بشاعر !!

قال الرجل : « نجف » تقول !

وأجاب عروة : لعل أشباح الليل طافت بها . . . وللأشباح هواتف كأنغام الشعر بل هي أحلى !!

* * *

فى ذلك الصباح اضطر زوج عفراء إلى الخروج لشأن من شئونه فى حىّ آخر قريب من داره !

وخلى عن عروة فى الدار لحاجته إلى النوم !

فى تلك الأثناء دخلت الجارية « نجف » على عروة تحمل فى يدها إناء اللبن لفطوره . . فما إن رآها عروة حتى تقدم إليها مستعطفاً وقال :

هل لك يا نجف فى يد تولينها ؟ قالت الجارية : أجل . . قال عروة : تدفعين بخاتمى هذا إلى مولاتك !

واستنكرت الجارية هذا الطلب وأجفلت وقالت له : سوأة لك يا رجل !! أما تستحى لهذا القول ؟ فأمسك عروة وأطرق . . ثم عاد فقال : ويحك يا نجف !! هى والله بنت عمى ...

وما أحد منا إلا هو أعز على صاحبه من الناس ، فاطرحي هذا الخاتم فى صحنها . . فإن أنكرت عليك ذلك فقولى لها : اصطبح ضيفك قبلك . . ولعل خاتمه سقط منه فى الصحن . . .

قال هذا وراح فى إغماءة قصيرة ! !

سمعت الجارية هذا الكلام فأحست بصدقه ، ورثت لصاحبه وفعلت ما طلب منها !

وما شربت عفراء لبن الصباح ورأت الخاتم فى قاع الصحن حتّى تفزعت واضطربت وصاحت بالجارية : اصدقيني الخبر يا نجف . . . هذا خاتم ابن عمى!! هذا خاتم عروة . . . فمن أين لك به ؟

قالت الجارية : هدئى من روعك يا مولاتى ! إنه ضيفك الذى نزل بنا منذ أيام !

فصاحت عفراء : تقولين ضيفى ؟ أهو عروة ؟ أهو ابن عمى ؟ ربّاه ! أحلم ذاك أم خيال ؟

وبينما هى تصيح متعجبة مضطربة إذ دخل عليها زوجها . . وما إن رأته حتّى صاحت به فى لهفة : أتدرى من ضيفك هذا ؟

قال الزوج : هو فلان ابن فلان من قبيلتنا . . وذكر لها الاسم الذى دخل به عروة ضيفاً !

قالت عفراء وهى واجفة حزينة : كلا ! ما هو ذاك ؛ بل هو عروة ابن عمى . . وقد كتمك نفسه حياء منك . . . !

ارتعدت فرائص الزوج وأحس بل توجس أن فى الأمر شرًّا ينتظره !

ولمحت عفراء ما بنفس زوجها من القلق والانزعاج فهتفت به : ما بك ؟ ما بك . . ؟ إنه عروة ابن عمى !!

ورأى الرجل ما بنفس عفراء وهو الحريص عليها . . والمشغوف بها . . وتذكر ما سمعه عن عروة من الخير والعفة ومن ألفته بها صغيرين فشدّ على نفسه وقال : مرحباً به يا عفراء . . . مرحباً بعروة ابن عمك !

وجرى إليه فجذبه من يده وأدخله على عفراء بعد أن عاتبه على كتمان نفسه !

فما رأى كل منهما الآخر حتى بكى واستعبر . . إلا أن عفراء لم تنس موقفها كزوجة ؛ فكتمت فى نفسها ما أحست به من ذهول المفاجأة وتماسكت !

أما عروة فقد ارتمى على الأرض مغشيًّا عليه والزوج بينهما مذهول يردد : « لا حول ولا قوة إلا بالله » ! .

ولما أفاق عراوة من غشيته باهتاً هزيلا خاطبه الزوج فى نغمة الشهم : يا عروة بن حزام ! هذه عفراء ابنة عمك . . . ووالله ما كنت أعلم أن ما بينكما قد وصل إلى هذا الحد . .

فاجلس إليها وتحدث بما تريد . . . وإن إعزازى لها ليحول بينى وبين إغضابها .. وثقتى فى عفتك وصدق شعورك ليحول بينى وبين القسوة عليك . فالدار دارك فأقم فيها بيننا . .

وإنى وإياها لصاحب لك وصديق .

سمع عروة كلام الزوج وهو ذو الحس المرهف فتأثر وبكى وتعزى بما وجد فى زوج عفراء من كرم وتسامح وحسن استقبال .

* * *

جلس عروة إلى عفراء على علم من زوجها فى ضحى يوم من الأيام ، وعلى بعد منهما الجارية « نجف » تسترق السمع ولا يريانها . . . قال عروة : يا عفراء . . . رجعتُ إليك بمهرك ثمانين ناقة فقالوا لى إنك متّ !! . . . . :

وأرونى قبرك يا عفراء ، ولاتسألى عما حل بى . فأنت لاشك واثقة به . . . !

قالت عفراء : قبرى . . . ؟ قبرى أنا يا عروة ؟

أجل يا عفراء . . . وقد لزمته وبكيتك فى شعرى !

وابتسمت عفراء وقالت : وما قلت فىّ يا عروة ؟ فأنشد :

سأقطعُ بعدك الدنيا شريداً
إلى لقياك يوماً عند ربى
وكيف أعيش بعدك يا حبيبى ؟
وما للعيش معنى بعد حبى

وبكت عفراء وصاحت بعروة : لا تنهض الأوجاع فى قلبى ...وحسبى ما لقيت بعدك من الضنى والعذاب!! وأطرقت.

قال عروة : أوثقت يا عفراء من حلم المرعى ؟ حلم الشاة

رفيعة والكبش رفيع؟

أوثقت يا عفراء أن ما سمعناه من قصص « الفزارى » كان إرهاصاً لخاتمتنا ؟

وشهقت عفراء وزفرت زفرة أحرقت صدرها وقالت : بالله يا عروة إلا ما رحمتنى من هذا الحديث !! وزفر هو الآخر زفرة مريرة وأنشد :

فيا عـم لا أسقيت من ذى قرابة
بلالا ، فقد زلت بـك القدمان

ومنيتنى عفـراء حتى رجـوتها
وشاع الذى منيت كل مكان

بنية عمى ، حيـل بينى وبينهـا
وصاح لوشك الفرقة الصردان

وما إن انتهى من إنشاده حتى دخل الزوج فأسرعت الجارية لاستقباله وهتفت به :

ألم أقل لك يا مولاى : إن ضيفنا شاعر ؟ قال الزوج : وما رأيت ؟ قالت الجارية : والله كل خير يا مولاى ! والله إنها ما تنظر إليه إلا أطرق .. . وإنه ما ينظر إليها حتى تطرق..!

لقد تباكيا وتشاكيا حتى حضرت .

ودخل الزوج على عروة وعفراء فحياهما وهتف : الطعام يا عفراء !

وكان خبر عروة قد سرى فى الحى وذاع ، وعرف الناس

قصته ومقامه عند زوج عفراء . . .

وكان ممن علموا بأمره ابن عم للزوج فثار وغضب . . . وتوجه إلى الزوج فلقيه بباب داره فصاح به : تتركون هذا الكلب الذى قد نزل بكم هكذا فى داركم فيفضحكم ؟

قال الزوج : ومن تعنى ؟

قال ابن عمه : عروة بن حزام العذرى .

فأجابه الزوج : والله ، ما عروة هكذا !! بل أنت والله الكلب !! وهو القريب الكريم ، والشاعر العفيف !!

* * *

طال مقام عروة بضعة أيام فى دار عفراء ، وزوجها يوليه عطفاً بعد عطف ، ورعاية على رعاية . ولقد كان مسلك الزوج إزاء عروة مسلكاً كريماً . . . إنه حقًّا لزوج طيب القلب ، صافى السريرة .

لقد أحس فى زيارة عروة — رغم انتحاله اسماً مزيفاً — أنه صادق العاطفة ، وأنه عفيف القصد ، وأنه كان محبًّا لعفراء حبًّا طاهراً عذريًّا .

لقد ولد حبهما فى طفولتهما ، ثم شب معهما صبيين ، ثم تمكن منهما فى مطلع الشباب !

أحس الزوج بهذا كله ، فشعر أنه اقترف جريمة لم يتعمدها . وأنه بزواجه من عفراء قد قتل أول شاعر من شعراء الحب العذرى هو عروة بن حزام الذى رثاه الشعراء من بعده وفى مقدمتهم

مجنون ليلى !

لقد قتله الزوج غير عامد . . . قتله بماله وثرائه وإغرائه هند أم عفراء بالألطاف والهدايا . . !

أحس الزوج كل هذا فأظلمت نفسه حزناً وود أن لم يكن قد تم هذا الزواج الذى ذهب — أو كاد — بنفس بريئة كانت أحق منه بالهناءة والإسعاد !

إنه لم يكن يعرف عفراء من قبل ، ولكنه تزوجها شغفاً بجمالها ورغبة بالتمتع بها !

ولم لا ؟ وهو الثرى الوجيه الذى يستطيع أن يشترى متعه ورغباته بالمال والثراء !

* * *

أدرك زوج عفراء كل هذا ، وتيقن أن عروة كان أحق منه بعفراء .

فهو ابن عمها . . ورفيق طفولتها ، وزميل صباها ، ثم هو حبيبها الذى ما عرف سواها ، وما عرفت سواه !

أحس الزوج كل هذا فكفر عن سيئاته بمعاملته الطيبة لعروة أثناء مقامه فى داره .

وما أروع أن يقول الزوج لابن عمه الذى شتم عروة ووصفه بأنه كلب :

والله ما عروة هكذا ! بل أنت والله الكلب . . . وهو القريب الكريم ، والشاعر العفيف !!

الرّحيل . . . !

لم يطل مقام عروة فى دار عفراء أكثر مما طال .

لقد قدر عروة كرم زوجها وأحس فى مقامه عنده غضاضة عليه فقال لعفراء صباح يوم :

يا ابنة عمى : كنت حظى من الدنيا ، فذهبت عنى ! وسأرحل عنك إلى حتفى ، فما لى من عيشة بعدك . وقد أجمل زوجك الكريم وأحسن ، وقد بالغ فى صنيعه، وكرمه ، فوالله لا أقيم عنده بعد اليوم ، فأستودعك الله يا عفراء !

وأسرعت خطواته إلى باب الدار ، فجرت عفراء خلفه وأمسكت به وصاحت : والله لا تريم هذا المقام حتى يحضر زوجى !!

وتشبثت به . . . وتشبث هو بالباب، وإذا زوجها يطرق ، وما إن دخل حتى رأى عروة على أهبة الرحيل فصاح به :

يا ابن العم ! اتق الله فى نفسك ... وإنك إن رحلت عنا تلفت !!

ولعمرى ما أمنعك من رؤية عفراء أبداً . . . ولئن شئت لأفارقنها ولأنزلن عنها لك !!

ذهل عروة مما سمع فقال : جزاك الله خيراً يا زوج عفراء ،

وأحسن إليك جزاء ما صنعت ، وبورك فيها وفيك . . وجعلنى الله فداء لابنة عمى وثمناً لراحتك وإسعادك والسلام عليكم ...!

وخطا إلى الخارج فمنعه الزوج وصاح : يا عفراء . . . امنعى ابن عمك من الرحيل . . . فأجابت عفراء فى كمد :

دعه يرحل . . . فما فى بقائه بيننا من أمل له ، ولا من راحة لنا . . وما فى رحيله نجاء مما به !! فدعه يرحمه الله . . . ثم رحل وقد زودته بخمار لها علّه يشفيه .

* * *

تجددت أحزان عفراء بعد رحيل عروة ، لقد كانت رحلته إليها وإقامته فى دارها طعنة أخرى لجرح كان أوشك أن يندمل .

لقد تجرعت عفراء ليلة رحيله من الآلام والأوجاع ما تحملت ليلة زفافها فى حيها الذى نشأت فيه فى البادية .

فما رحل عروة عنها إلى حيث لا يدرى ولا تدرى حتى تبدلت حياتها مع زوجها ، فهو وإن كان رجلا طيباً كريماً فإنه ليس الرجل الذى تهواه .

إنها تحترم فيه رجولته وشهامته وحبه إياها . . . ولكنها لا تحس نحوه بخفقة القلب أو نبضة الوجدان . لقد اعتراها الملل بعد رحيل عروة فبدا عليها رغم تظاهرها بالهدوء والرضاء .

ولقد تملكها القلق والحيرة والانقباض والوحشة رغم محاولتها الكتمان . . . ولقد أحس زوجها ما تعانيه فعمل جاهداً على

التسرية عنها ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

إن عفراء لتسائل نفسها : ما ذنب هذا الزوج الطيب الوفى ؟ فيجيبها عقلها :

إنك على غير حق .. وإنك لقاسية عليه ، وإن واجبه عليك كزوج لأعظم مما تؤدين له من مجاملة كزوجة كريمة وفية . . . ! !

ويسمع قلبها كلام عقلها فيهتف :

صه أيها العقل . . . إنها تحب ! ! وإن لها لحبيباً تتمناه ، وليس لها إليه من سبيل !

* * *

رحل عروة عن عفراء إلى حيث لا يدرى !

لقد هام على وجهه فى الفيافى والقفار وقد شحب وجهه وغارت عيناه وتشعث شعره ، وبرزت عظامه .

وما زال هكذا شريداً فى القفار حتى تولاه جماعة من صعاليك الصحراء تعرفوا عليه ، ورثوا لحاله فما زالوا به حتى أسلموه إلى أمه وقد أسنت وأعقبت له ثلاثاً من البنات .

وكانت أمه تسكن حياً من أحياء بنى عذرة وقد مات عنها زوجها قتيلا وترك لها ولبناته شيئاً من اليسار . وها هو ذا ولدها الوحيد يعود إليها شريداً مخبولا .

وبكت أمه وأخواته حين رأينه ، ووقفن عليه يمرضنه وهو لا يزداد إلا نحولا وذهولا .

ولقد أعيتهن الحيل فأشارت عجوز بحمله إلى ابن مكحول عراف اليمامة فحمل إليه فما إن رآه حتى قال : هذا والله مخبول . . .

فأجاب عروة :

وما بى من خبل وما بى جنة
ولكن عمى يا أخىّ كذوب

أقول لعراف اليمامة داونى
فإنك إن داويتنى لطبيب

فواكبدا أمست رفاتاً كأنما
يلذغها بالموقدات طبيب

عشية لا عفراء عنك بعيدة
فتسلو ، ولا عفراء منك قريب

فوالله لا أنساك ما هبت الصبا
وما عقبتها فى الرياح جنوب

وإنى لتغشانى لذكراك هزة
لها بين جلدى والعظام دبيب

وما نفع عروة طب ابن مكحول ، ولا أجدى عليه سحر « سالم » الساحر اليمنى . . فحمل إلى عراف نجد . فلما رآه العراف قال : إن به لسحراً . . . فأجلسه وجعل على رأسه طبقاً به ماء وأذاب فيه الرصاص . . ثم سكبه ودفنه فى فضاء من الأرض . . . فما زال عن عزوة ما به ، وإنما زاد ضناه ، واشتد

عليه الذهول وغمره اليأس فأنشد :

جعلت لعرّاف اليمامة حكمه ... وعراف نجد إن هما شفيانى
فقالا نعم: نشفى من الداء كله ... وقاما مع العواد يبتدران
فما تركا من رقية يعلمانهـــا ... ولا سلوة إلا وقد سقيـــانى
وقالا شفاك الله . والله ما لنا ... بما حملت منك الضلوع يدان

* * *

لم ينفع عروة طب العرافين ولا سحر السحرة فرجع به أهله وهو لا يعى .

وقال قوم لأهله : احملوه إلى ابن عباس ليطوف به حول الكعبة ويدعو له . . فحمل إلى ابن عباس رضى الله عنه على يد رجلين من قومه .

قال من رآه : كنت مع ابن عباس بعرفات ، فأتاه فتيان يحملان بينهما فتى لم يبق منه إلا خياله فقالوا له :

يا ابن عم رسول الله : ادع له .

قال ابن عباس : وما به ؟

فأجاب عروة :

بنا من جوى الأحزان فى الصدر لوعة
تكاد لها نفس الشفيـــق تذوب
وما عجب موت المحبين فى الهوى
ولـــكن بقاء العاشقين عجيب

فدعا له ابن عباس وطاف به حول الكعبة، ثم سأل عنه؛

فقيل له : هو عروة بن حزام قتيل الغرام . .

فقال : خذوه يرحمه الله . . !

وما نسى ابن عباس فى صباحه ومسائه أن يدعو له ، ويسأل الله العافية مما ابتلى به .

وذهب به أهله إلى حيث هم فوضعوه طريحاً فى دار أمه لا يعى ، ومن حوله أمه وأخواته يبكين حتى مرّ به ابن أبى عتيق فتعرف عليه .

حدث الرواة أن ابن أبى عتيق قال حين رآه :

والله إنى لأسير فى أرض عذرة ، فإذا فتى راقد بفناء دار.. وإذا بعجوز وراءه فى كسر البيت وإذا الفتى فى جسم طفل صغير ناحل هزيل ،وإذا له لحية طويلة مشعثة فدعوت العجوز وقلت لها : ويحك ! من هذا ؟

قالت : هل سمعت بعروة بن حزام ؟ قلت : نعم ، قالت : هذا والله عروة !

فقلت له : أأنت عروة ! فكلمنى وعيناه تذرفان وتدوران فى رأسه وأنشد :

وقد علمت نفسى مكان شفائها
قريباً وهل ما لا ينال قريب ؟

حلفت برب الساجدين لربهم
خشوعاً وفوق الساجدين رقيب



لئن كان يرد الماء حران صاديـا
إلىّ حبيبـاً ، إنها لحبيب !

ثم رفع رأسه إلىّ وقال :

من كان من أمهاتى باكياً أبـداً
فاليوم إنى أرانى اليوم مقبوضـا

يسمعننيه ، فإنى غير سامعـة
إذا علوت رقاب القوم معروضـا

ثم شهق شهقتة وأغمض عينيه ، فقربت منه أتحسسه فإذا هو جثة هامدة .

ونظرت إلى العجوز وقلت لها : ما يكون منك يا هذه ؟

قالت : هو ولدى !! قلت لها : يرحمه الله !

* * *

قضى عروة وقامت عليه النوادب .

ويقول الرواة : طار خبر موت عروة فى الآفاق ، فحملته قافلة كانت راحلة إلى الشام وقد عرف رجالها قصته ، فعرج جماعة منهم إلى دار عفراء وهتفوا :

ألا أيها الـدار المغفل أهلهـا
إليـكم نعينـا عروة بن حزام

وسمعت عفراء النداء فصرخت هاتفة :

ألا أيها الركب المخبون ويحكم
أحقًّا نعيتم عروة بن حزام ؟

فأجابوا :

نعم ، قد دفنّا بأرض بعيدة
مقيم بها في سبسب وأكام

فقالت عفراء :

فإن كان حقّاً ما تقولون فاعلموا
بأن قد نعيتم بدر كل ظلام
نعيتم فتى يسقى الغمام بوجهه
إذا هى أمست غير ذات غمام

وملأت عفراء دارها صراخاً وبكاء وقالت لزوجها :

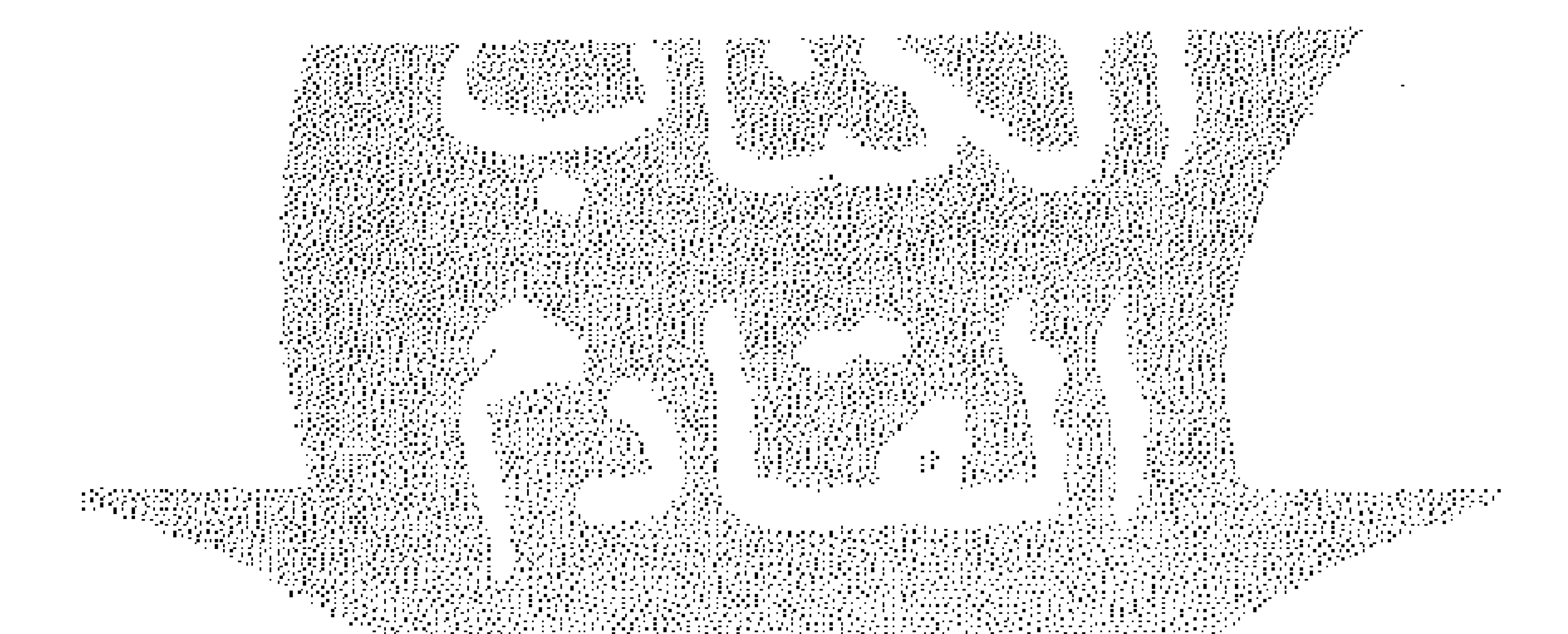
هذا ابن عمي عروة . . مات بسببي ومن أجلي ، فدعني أقم عليه مأتماً ، فكان لها ما أرادت . وأقامت المأتم ، وما زالت تبكيه حتى قضت بعد المأتم بأربعة أيام .

ويقول الرواة : مرّ عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فى بعض طوافه ببادية الحجاز بدار فيها عجوز تندب وحولها بعض النسوة يبكين ، وأمامهن فتى شاحب نحيل طالت لحيته ، واغبر شعره ، ودارت عيناه فى محاجرها فسأل :

من الفتى ؟ فأجابت إحدى النساء : هو عروة بن حزام ... حبيب عفراء ، وقتيل الغرام .

فتمتم عمر رضى الله عنه بكلمات خافتة ثم قال :
والله لو علمت أمرهما لجمعتُ بينهما .

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٩



اقرأ

العقلانية في الإسلام

أحمد الشرباصي